الفصل السادس

الفايكنغ: البداية والنهاية

تجارب في الأطلسي ■ انتشار الفايكنغ ■ التفاعل الذاتي
زراعة الفايكنغ ■ الحديد ■ زعماء الفايكنغ ■ معتقد الفايكنغ
أوركني، شتلاند، فيرو ■ بيئة الجزيرة
■ تاريخ الجزيرة ■ الجزيرة في السياق ■ فنلاند ■

عندما سمع روّاد السينما من جيلي كلمة «فايكنغ»، تخيلنا الممثل كيرك دوغلاس، نجم الفيلم الملحمي الذي لا ينسى لسنة 1958م الفايكنغ، يرتدي قميصاً جلدياً تملؤه المسامير فيما كان يقود همجيين ملتحين في عمليات إغارة، وسلب وقتل. بعد نصف قرن تقريباً من مشاهدة ذلك الفيلم مع صديقة من الجامعة، ما زلت أستطيع أن استعيد في مخيلتي المشهد الافتتاحي حيث يجتاح المحاربون الفايكنغ بوابة قصر فيما كان قاطنوه الذين قد أفرطوا في الشراب غافلين في الداخل عما يحدث، وصرخ هؤلاء السكان عندما اندفع إليهم الفايكنغ وذبحوهم، وطلب كيرك دوغلاس من أسيرته الحسناء جانيت ليغ أن تزيد من متعته بأن تحاول عبثاً مقاومته. هناك الكثير من الحقيقة في تلك الصور الملطخة بالدماء: روّع الفايكنغ بالفعل أوروبة عدة قرون في العصور الوسطى. بلغتهم الخاصة (اسكندنافية قديمة)، حتى كلمة فايكنغار تعني «مُغير».

لكن أجزاء أخرى من قصة الفايكنغ ساحرة وعلى علاقة أكبر بهذا الكتاب. إلى جانب كونهم قراصنة مخيفين، كان الفايكنغ مزارعين، وتجاراً، ومستوطنين، وأول الأوروبيين الذين يستكشفون شمال الأطلسي. كانت مصائر المستوطنات التي أقاموها مختلفة جداً. انصهر الفايكنغ الذين استوطنوا القارة الأوروبية والجزر البريطانية أخيراً مع السكان المحليين وأدوا دوراً في تشكيل عدّة دول وأهمها روسية، وإنكلترة وفرنسة. تمثّل مستعمرة

فنلاند أول محاولة قام بها الأوروبيون لاستيطان أمريكة الشمالية، التي تم هجرانها بسرعة؛ فيما بقيت مستعمرة غرينلاند طوال 450 سنة أبعد بقعة يقوم عليها مجتمع، وقد اختفت أخيراً؛ ومستعمرة آيسلندة التي كافحت عدة قرون الفقر والصعوبات السياسية، وانبثقت في السنوات الأخيرة بوصفها إحدى أغنى المجتمعات في العالم؛ ومستعمرات أوركني، وشتلاند وفايرو التي استمرت مع بعض الصعوبات. جاءت كل مستعمرات الفايكنغ تلك من المجتمع السابق نفسه: كان واضحاً أن مصائرها المختلفة مرتبطة بالبيئات المختلفة التي وجد المستوطنون أنفسهم فيها.

لهذا يقدم توسع الفايكنغ نحو الغرب عبر شمال الأطلسي تجربة طبيعية مفيدة، تماماً كما كان انتشار البولينسيان نحو الشرق عبر الأطلسي (خريطة). تقدم لنا غرينلاند، نظراً لكونها جزءاً من تلك التجربة الطبيعية الكبيرة، تجربة صغيرة: التقى الفايكنغ شعباً آخر هناك -الأسكيمو- الذين كانت حلولهم لمشكلات الفايكنغ البيئية مختلفة جداً عن حلول الفايكنغ. عندما انتهت تلك التجربة الأصغر بعد خمسة قرون، كان فايكنغ غرينلاند قد اختفوا جميعاً، وتركوا غرينلاند بشكل كلي في أيدي الأسكيمو. تحمل مأساة اسكندنافيي غرينلاند لهذا السبب رسالة مفعمة بالأمل: حتى في بيئات صعبة، ليست انهيارات المجتمعات البشرية أمراً محتوماً: إنها تعتمد على كيفية تصرف الناس.

يمكن مقارنة انهيار غرينلاند الفايكنغ الذي نجم عن أسباب بيئية والصعوبات التي واجهت آيسلندة مع انهيارات جزيرة الفصح، ومنغريفا، والأناسازي، والمايا والعديد من مجتمعات ما قبل الحقبة الصناعية الأخرى التي كانت أسبابها بيئية أيضاً. على أي حال، نتمتع بميزة فهم انهيار غرينلاند ومتاعب آيسلندة. فيما يخص تاريخ غرينلاند ولا سيما آيسلندة، نمتلك من تلك الحقبة سجلات مكتوبة لتلك المجتمعات إضافة إلى سجلات من شركائها التجاريين - سجلات غير كاملة بشكل يثير الإحباط، لكنها مع ذلك أفضل بكثير من الافتقار الكامل لسجلات شهود عيان مكتوبة من مجتمعات ما قبل الحقبة الصناعية تلك. مات الأناسازي أو تبعثروا، وتأثر مجتمع القلة القليلة ممن تبقى على الفصح بالدخلاء، لكن معظم أهل آيسلندة المعاصرون لا يزالون ينحدرون بشكل مباشر

من رجال فايكنغ وزوجاتهم السلتيك الذين كانوا أوائل المستوطنين على آيسلندة. كانت المجتمعات الأوروبية النصرانية في العصور الوسطى، مثل تلك التي كانت في آيسلندة وغرينلاند الاسكندنافية، قد تطورت مباشرة إلى مجتمعات أوروبية نصرانية معاصرة. نعرف لذلك ما تعنيه آثار الكنيسة، والفن الباقي، وأدوات التنقيب الأثري، فيما يتطلب الأمر الكثير من التخمين لتفسير البقايا الأثرية لتلك المجتمعات الأخرى. على سبيل المثال، عندما وقفت عند فتحة في الجدار الغربي للمبنى الحجري الذي تم تشييده سنة 1300 قبل الميلاد في هفالسي في غرينلاند، كنت أعرف بالمقارنة مع كنائس نصرانية في أماكن أخرى أن ذلك البناء كان أيضاً كنيسة نصرانية، وأنها كانت نسخة طبق الأصل تقريباً عن كنيسة إيدفورد في النرويج، وأن تلك الفتحة في الجدار الغربي كانت المدخل الرئيس في كنائس نصرانية أخرى (صورة 15). خلافاً لذلك، لا يمكننا فهم أهمية تماثيل جزيرة الفصح الحجرية من مثل تلك التفاصيل.

يخبرنا مصيرا آيسلندة وغرينلاند الفايكنغ قصة أكثر تعقيداً، على الرغم من أنها أكثر ثراءً، مما يخبرنا به مصير جزيرة الفصح، وجيران منغريفا. والأناسازي، والمايا. أدت كل العوامل الخمسة التي ناقشتها في المقدمة دوراً في ذلك. أضرّ الفايكنغ ببيئتهم فعلاً، وعانوا من تغيرات المناخ، وأثّر سلوكهم وقيمهم الثقافية في النتيجة. ظهر العاملان الأول والثالث في تاريخي الفصح وجيران منغريفا، وظهرت العوامل الثلاثة كلها في حالة الأناسازي والمايا؛ لكن إضافة إلى ذلك أدت التجارة مع شركاء أصدقاء دوراً أساساً في تاريخي آيسلندة وغرينلاند كما فعلت مع جيران منغريفا والأناسازي، على الرغم من أنها لم تكن كذلك فيما يخص تاريخي جزيرة الفصح والمايا. أخيراً، من بين كل تلك المجتمعات، وحدها غرينلاند الفايكنغ التي شهدت تدخل أعداء (الأسكيمو) بشكل حاسم. لهذا إذا كان تاريخا جزيرة الفصح وجيران منغريفا مثل مقطوعة موسيقية يتكرر فيها اللحن الرئيس مرتين أو ثلاثة على التوالي، كما هي بعض مقطوعات يوهان سيباستيان باخ، فإن متاعب آيسلندة معزوفة تتألف من أربعة مقاطع، مثل المعزوفة الرائعة غير المنتهية التي كان الراحل باخ ينوي إنجاز عمله الأخير «فن المقطوعة الموسيقية» بها.

وحدها نهاية غرينلاند تقدم لنا ما لم يستطع باخ نفسه إنجازه، مقطوعة موسيقية كاملة من أربعة مقاطع. لكل تلك الأسباب، سيتم تقديم مجتمعات الفايكنغ في هذا الفصل والفصلين القادمين لتكون المثال الأكثر تفصيلاً في هذا الكتاب: الخروف الثاني والأكبر داخل الأفعى الكبيرة.

مقدمة معزوفة آيسلندة وغرينلاند الموسيقية أن الفايكنغ انتشروا في أرجاء أوروبة العصور الوسطى بعد سنة 793 ميلادية، من أيرلندة والبلطيق إلى المتوسط والقسطنطينية. تذكر أن كل العناصر الأساسية للحضارة الأوروبية في العصور الوسطى كانت قد ظهرت في /1000/ السنة السابقة في أو قرب الهلال الخصيب، وهي المنطقة التي تتخذ شكل الهلال في جنوب غرب آسية وتمتد من شمال الأردن إلى جنوب شرق تركية ثم شرقاً إلى إيران. جاءت من تلك المنطقة أول المحاصيل والحيوانات الأهلية والنقل بالعجلات، وصناعة النحاس ثم البرونز والحديد، وظهور البلدات والمدن، والإمارات والممالك، والأديان المنظمة في العالم. وانتشرت كل تلك العناصر تدريجياً إلى أوروبة وأدّت إلى نهضتها من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، ابتداءً من وصول الزراعة إلى اليونان من الأناضول نحو سنة 7000 قبل الميلاد. كانت اسكندنافية، أقصى زاوية أوروبية بعداً عن الهلال الخصيب، وآخر منطقة في أوروبة تشهد تلك النهضة، ولم تصلها الزراعة إلا نحو سنة 2500 قبل الميلاد فقط. وكانت أيضاً البقعة الأبعد عن تأثير الحضارة الرومانية: بخلاف منطقة ألمانية الحالية، لم يصلها التجار الرومان قطّ، ولم يكن لها أي حدود إطلاقاً مع الإمبراطورية الرومانية. لهذا بقيت اسكندنافية، حتى العصور الوسطى، منطقة منعزلة في أوروبة.

كانت اسكندنافية تمتلك مجموعتين من الميزات الطبيعية يمكن الاستفادة منهما: فراء حيوانات الغابات الشمالية، وجلود الفقمة، وشمع العسل الذي يعد مادة فاخرة في باقي أوروبة، وساحل طويل (في النرويج كما في اليونان) يجعل السفر بحراً أسرع من السفر براً، ويقدم فائدة لأولئك الذين يستطيعون تطوير أساليب النقل البحري. لغاية العصور الوسطى، لم يكن لدى الاسكندنافيين غير قوارب تدفعها المجاديف دون أشرعة. وصلت

تقانة القوارب الشراعية من المتوسط إلى اسكندنافية أخيراً نحو سنة 600 ميلادية، في وقت حفّز فيه دفء المناخ ووصول المحراث المتطور زيادة إنتاج الطعام وترافق مع زيادة عدد السكان في اسكندنافية. نظراً لأن معظم تضاريس النرويج جبلية، لا يمكن الاستفادة إلا من 3% فقط من مساحة الأرض للزراعة، التي تعرضت للضغط نتيجة تزايد عدد السكان بحلول سنة 700 قبل الميلاد، خاصة في غرب النرويج. مع تناقص الفرص في إقامة مزارع جديدة في الوطن، بدأ سكان اسكندنافية الذين بدأت أعدادهم بالتزايد الانتشار ما وراء البحار. لدى وصول الأشرعة إليهم، طوّر الاسكندنافيون بسرعة سفناً شراعية سريعة مزودة بمجاديف، لها قدرة كبيرة على المناورة ومثالية لنقل صادراتهم الفاخرة لمشترين متلهفين في أوروبة وبريطانية. سمحت لهم تلك السفن بعبور المحيط، وكان يجري سحبها على أي شاطئ ضحل أو استعمال المجاديف لعبور الأنهار، دون أن يحصروا أنفسهم بموانئ المياه العميقة القليلة.

لكن فيما يخص اسكندنافيي القرون الوسطى، كما هو الحال في كل شعوب البحار عبر التاريخ، كانت التجارة تمهد الطريق لشن الغارات. حالما كان بعض التجار الاسكندنافيون يكتشفون مسارات بحرية تصل إلى شعوب ثرية يمكن أن تدفع مقابل الفرو فضة أو ذهباً، كان الأشقاء الأصغر سناً لهؤلاء التجار يدركون أنهم يستطيعون الحصول على الفضة والذهب نفسهما دون أن يدفعوا شيئاً بالمقابل. وكان يمكن الاستفادة من تلك السفن المستعملة في التجارة للانتقال أيضاً باستخدام الأشرعة والمجاديف عبر تلك المسارات البحرية والوصول فجأة إلى البلدات الساحلية وبجانب الأنهار، وبينها تلك البعيدة في اليابسة على مجرى الأنهار. أصبح الاسكندنافيون فايكنغ، أي: مُغيرين. كانت سفن – وبحارة الفايكنغ– سريعة تماماً مقارنة بتلك المتوافرة في أماكن أخرى من أوروبة، وكانت تستطيع الهروب قبل أن تلحق بها السفن المحلية الأبطأ، ولم يشن الأوروبيون أبداً غارات مضادة على وطن الفايكنغ لتدمير قواعدهم. لم تكن الأراضي التي تشكل الآن النرويج والسويد موحدة آنذاك بقيادة ملك واحد، بل كانت مقسّمة بين زعماء وأمراء متلهفين للمنافسة على غنائم ما وراء البحار لكسب ولاء أتباعهم. وكان الزعماء الذين يخسرون في الصراع ضد زعماء آخرين في الداخل يحاولون أيضاً تجريب حظهم في ما وراء البحار.

توسع الفايكنغ
تروندهايم
أيسلندا
جزر فيرو
جزر شتلايد
النرويج
بيرغن
توسع الفايكنغ
جزر اوركني
السويد
الدنمرك
بحر البلطيق
أيرلندة
بريطانية
نورماندي
نهر السين
أوروبة
بريتاني
نهر لوار
البحر المتوسط
إفريقية
15°
0°
15°

جزيرة ايلسمير
جزيرة سكرالنغ
75°
غرنيلاند
نوردرستا
جزيرة بافن
مضيق ديفز
رأس دوريست
نوك غودهاب
المستعمرة الغربية
60°
نارسارسوك
كاكورتك
المستعمرة الشرقية
لابراودر
كندة
موقع لانزاوميدوز
خليج مان لورنس
نيوفاوندلاند
برونسك الجديدة
45°
نيوفاسكوتيا
0
500
0
500
30°
60°
45°
30°

بدأت غارات الفايكنغ فجأة في 8 حزيران 739 قبل الميلاد، مع هجوم على دير جزيرة لنديسفيرن الثري الذي يفتقر للحماية قبالة الساحل الشمالي الشرقي لإنكلترة. واستمرت الغارات بعد ذلك كل صيف عندما يكون البحر هادئاً ويساعد أكثر على الإبحار، حتى توقف الفايكنغ بعد عدة سنوات عن العودة إلى الوطن في الخريف وأقاموا بدلاً من ذلك مستوطنات شتوية على الساحل المستهدف بحيث يمكنهم شن غارات مبكرة في الربيع الآتي. ظهرت منذ تلك البدايات الأولى إستراتيجية مرنة ذات بدائل متعددة للحصول على الثروة اعتمدت على نقاط القوة النسبية لأساطيل الفايكنغ والشعب المستهدف. فيما كانت قوة أو أعداد الفايكنغ نسبة إلى السكان المحليين ترتفع، وتطورت الأساليب من المقايضة المسالمة عبر ابتزاز جزية مقابل وعد بعدم شن غارات إلى السلب والفرار، ووصلت إلى ذروتها في تحقيق انتصارات وإقامة مستوطنات في ولايات فايكنغ ما وراء البحار.

شن فايكنغ من أجزاء مختلفة من اسكندنافية غارات باتجاهات مختلفة. أبحر أولئك الذين كانوا يقطنون مناطق في السويد حالياً، ويدعون فارانغ، شرقاً إلى بحر البلطيق وساروا مع الأنهار التي تتدفق من روسية إلى البلطيق، وتابعوا جنوباً حتى وصلوا إلى منابع الفولغا وأنهار أخرى تتدفق نحو البحر الأسود وبحر قزوين، وعملوا في التجارة مع الإمبراطورية البيزنطية الثرية، وأسّسوا إمارة كييف التي أصبحت قاعدة لدولة روسية الحديثة. أبحر الفايكنغ من الدانمرك حالياً غرباً إلى ساحل شمال غرب أوروبة والساحل الشرقي لإنكلترة، وشقوا طريقهم عبر نهري الراين ولوار، وأقاموا مستوطنات عند منبعيهما وفي نورماندي وبريتاني، وأسسوا دولة دينلو في شرق إنكلترة ودوقية النورماندي في فرنسة، وداروا حول الساحل الأطلسي لإسبانية للوصول إلى مضيق جبل طارق والإغارة على إيطالية. أبحر الفايكنغ من النرويج حالياً إلى أيرلندة والساحلين الشمالي والشرقي لبريطانية وأقاموا مركزاً تجارياً رئيساً في دبلن. وفي كل منطقة استقر بها الفايكنغ في أوروبة، تزوجوا من أهلها، واندمجوا تدريجياً مع السكان المحليين، ونتج عن ذلك أخيراً اختفاء اللغات والمستوطنات الاسكندنافية المتمايزة خارج اسكندنافية. انصهر الفايكنغ السويديون ضمن السكان الروس، والفايكنغ الدانمركيون

ضمن السكان الإنكليز، فيما تخلى الفايكنغ الذين استقروا في النورماندي عن لغتهم الاسكندنافية أخيراً وبدؤوا يتكلمون الفرنسية. في عملية الانصهار تلك، دخلت كلمات ومورثات اسكندنافية إلى تلك الشعوب. على سبيل المثال، تدين اللغة الإنكليزية المعاصرة بكلمات «رجعي»، «موت»، «بيضة»، «تنورة» وعشرات غيرها من الكلمات التي يتم تداولها يومياً للغزاة الاسكندنافيين.

في سياق تلك الرحلات لاستيطان الأراضي الأوروبية، انحرفت الكثير من سفن الفايكنغ عن مسارها نحو شمال المحيط الأطلسي، الذي كان في تلك الأوقات من المناخ الدافئ خالياً من الجليد الذي أصبح لاحقاً عائقاً أمام الملاحة، وأسهم في تحديد مصير غرينلاند الاسكندنافية وتيتانيك. وصلت تلك السفن التي خرجت عن مسارها إلى أراضٍ أخرى لم تكن معروفة سابقاً للأوروبيين أو أي شعب: جزر فيرو غير المأهولة في وقت ما بعد 800 ميلادية، وآيسلندة نحو 870، وغرينلاند نحو 980 التي كانت في ذلك الوقت مأهولة فقط في أقصى الجزء الشمالي منها من قبل أمريكيين أصليين أسلاف الأسكيمو المعروفين باسم شعب دورست، وفنلاند سنة 1000 ميلادية، ومنطقة استكشاف تشمل نيوفاوندلاند، وخليج سان لورانس وربما بعض المناطق الساحلية الأخرى في شمال شرق أمريكة الشمالية التي كان يقطنها أمريكيون أصليون أرغم وجودهم الفايكنغ على المغادرة بعد عقد فقط من وصولهم.

تراجعت غارات الفايكنغ على أورةبة بعد أن أصبحت أهدافهم الأوروبية تدريجياً تتوقع مجيئهم وتدافع عن نفسها، وازدادت قوة الملوك الإنكليز والفرنسيين والإمبراطور الألماني، وبدأت القوة الصاعدة للملك النرويجي تحد من اندفاع زعماء السلب هؤلاء وتوجه جهودهم لتنصب في أعمال تجارية محترمة. على القارة الأوروبية، أخرج الفرنك (قبائل في شمال فرنسة) الفايكنغ من منطقة نهر السين سنة 857 ميلادية، وحققوا نصراً كبيراً في معركة لوفان في بلجيكة حالياً سنة 891، وطردوهم من بريتاني سنة 939. وفي الجزر البريطانية، تم إخراج الفايكنغ من دبلن سنة 902، وتفككت مملكتهم دينلو في إنكلترة سنة 954، على الرغم من أنه تم تأسيسها من جديد بغارات أخرى بين سنتي

980 و1016. يمكن عدّ سنة 1066، الشهيرة بوقوع معركة هاستنغز التي قاد فيها ويليام الفاتح (ويليام النورماندي) محاربين يتكلمون الفرنسية وينحدرون من فايكنغ سابقين وألحقوا الهزيمة بإنكلترة، علامة أيضاً على نهاية غارات الفايكنغ. كان السبب الذي جعل ويليام يلحق الهزيمة بالملك الإنكليزي هارولد في هاستنغز على الساحل الجنوبي الشرقي لإنكلترة في 14 تشرين الأول هو أن هارولد وجنوده كانوا قد أصيبوا بالإعياء. بعد أن ساروا مسافة 200 ميل جنوباً في أقل من ثلاثة أسابيع بعد هزيمة آخر جيش غزو للفايكنغ وقتل ملكهم عند جسر ستامفورد وسط إنكلترة في 25 أيلول. تطورت الممالك الاسكندنافية بعد ذلك إلى دول عادية تعمل بالتجارة مع الدول الأوروبية ونادراً ما تدخل في حروب، أو تقوم بشن غارات بشكل مستمر على الآخرين. أصبحت النرويج في القرون الوسطى معروفة ليس بمحاربيها المخيفين وإنما بصادراتها من سمك القد المجفف.

في ضوء هذا التاريخ الذي سردته، كيف يمكننا تفسير سبب ترك الفايكنغ وطنهم والمخاطرة بحياتهم في معركة أو في تلك البيئات الصعبة مثل غرينلاند؟ بعد ألف سنة من بقائهم في اسكندنافية وترك باقي أوروبة وشأنها، لماذا كان انتشارهم سريعاً للغاية ووصل إلى ذروته سنة 793، ثم توقف تماماً بعد ثلاثة قرون من ذلك؟ في أي توسع تاريخي، يمكن للمرء أن يتساءل: هل كان السبب «دفعاً» (ضغط عدد السكان والافتقار إلى الفرص في الوطن)؟، أم «جذباً» (فرص جيدة ومناطق خالية للاستيطان ما وراء البحار)؟ أم كلاهما معاً؟. كان الدافع خلف العديد من موجات الانتشار البشري مزيجاً من الدفع والجذب، وكان ذلك صحيحاً أيضاً للفايكنغ: دفعهم نمو عدد السكان وتماسك السلطة الملكية في الوطن، وجذبتهم أراضٍ جديدة غير مأهولة لاستيطانها إضافة إلى أراضٍ ثرية مأهولة دون دفاع يحميها من المحاربين في ما وراء البحار. بشكل مشابه، وصلت الهجرة الأوروبية إلى أمريكة الشمالية إلى ذروتها في القرن السابع عشر إلى بداية القرن العشرين عبر مزيد من عوامل الدفع والجذب: دفع نمو عدد السكان، والمجاعة، والاضطهاد السياسي في أوروبة المهاجرين لترك أوطانهم؛ فيما جذبهم توافر أراضٍ زراعية خصبة غير مأهولة تقريباً والفرص الاقتصادية في الولايات المتحدة وكندا.

فيما يخص السبب الذي حوّل عوامل الدفع/الجذب فجأة من غير جذابة إلى جذابة بعد سنة 793 ميلادية، ثم استقرت بسرعة حتى سنة 1066م، يعد توسع الفايكنغ مثالاً جيداً عما يدعى عملية التحفيز الذاتي. تعني كلمة تحفيز في الكيمياء تسريع تفاعل كيميائي بإضافة مادة مساعدة، مثل الإنزيم. ينتج عن بعض التفاعلات الكيميائية مادة تفيد أيضاً في التسريع، لهذا تبدأ سرعة التفاعل بالازدياد ثم تهدأ عندما تتشكل مادة ما تعمل بدورها على تسريع التفاعل وإنتاج مادة أخرى تدفع التفاعل للوصول إلى سرعة أكبر. تدعى سلسلة التفاعل تلك التحفيز الذاتي، والمثال الرئيس لها هو القنبلة النووية عندما تشطر النيترونات نوى اليورانيوم لإطلاق طاقة إضافة إلى المزيد من النيترونات، التي تشطر المزيد من النوى.

بشكل مشابه، يحقق أي شعب يزداد عدد سكانه نتيجة عوامل ذاتية بعض الميزات الأولية مثل التقدم التقني والرخاء والازدهار، التي تحفّز بالمقابل المزيد من الناس في السعي للحصول على أرباح وتحقيق اكتشافات، ينتج عنها المزيد من الأرباح والاكتشافات تحفّز أيضاً المزيد من الناس على فعل الشيء نفسه، حتى يملأ ذلك الشعب كل المناطق المتاحة له بتلك الميزات، ويتوقف التوسع الناتج عن التحفيز الذاتي استعداداً لمرحلة لاحقة. حدد حادثان معينان سلسلة تفاعل الفايكنغ: الغارة سنة 793 ميلادية على دير لنديسفرين، التي نتج عنها غنائم كثيرة حفّزت في السنة الآتية على القيام بشن غارات مماثلة أسفرت عن غنائم أيضاً؛ واكتشاف جزر فيرو غير المأهولة التي تصلح لتربية الأغنام، مما قاد إلى اكتشاف آيسلندة الأكبر والأبعد ثم غرينلاند الأكبر منها والأبعد. وكان الفايكنغ، الذين يعودون إلى الوطن مع الغنائم أو يصفون الجزر الجاهزة للاستيطان، يطلقون مخيلة المزيد من الفايكنغ للخروج بحثاً عن المزيد من الغنائم والجزر الخالية. تتضمن أمثلة عن انتشار الشعوب خارج أوطانها نتيجة عوامل تحفيز ذاتية إلى جانب انتشار الفايكنغ خروج أسلاف البولينسيان نحو الشرق في المحيط الهادئ الذي بدأ نحو سنة 122 قبل الميلاد، وانتشار البرتغاليين والإسبان عبر العالم الذي بدأ في القرن الخامس عشر وخاصة مع «اكتشاف» كولومبس العالم الجديد سنة 1492.

مثل انتشار البوليسنيان والبرتغاليين/ الإسبان، بدأ انتشار الفايكنغ يؤول إلى الإخفاق عندما تم استيطان أو الإغارة على كل المناطق التي يمكن لسفنهم الوصول إليها، وعندما لم يعد الفايكنغ العائدون إلى الوطن يجلبون معهم قصصاً عن أراضٍ غير مأهولة أو يمكن الإغارة عليها بسهولة وراء البحار. كما أطلق حدثان معينان سلسلة تفاعل الفايكنغ، يرمز حدثان آخران إلى توقفها. كان أحدهما معركة جسر ستامفورد سنة 1066م، التي كللت سلسلة طويلة من هزائم الفايكنغ وأظهرت عقم القيام بشن غارات أخرى. وكان الآخر الإخلاء الإجباري لفنلاند، وهي أبعد مستعمرة للفايكنغ، نحو سنة 1000 ميلادية بعد عقد تقريباً من استيطانهم لها. تقول القصتان البطوليتان الاسكندنافيتان اللتان تصفان فنلاند إن الإخلاء كان نتيجة القتال مع السكان من الأمريكيين الأصليين الذين كانت أعدادهم أكبر من أن يهزمهم الفايكنغ الذين كانوا يعبرون الأطلسي على متن سفن في تلك الأوقات. مع امتلاء فيرو، وآيسلندة وغرينلاند بالفايكنغ، وبقاء فنلاند خطيرة للغاية، وعدم ظهور اكتشافات جديدة لجزر أطلسية غير مأهولة؛ وصل الفايكنغ إلى نقطة لم تعد فيها مكافأة الروّاد الذين يخاطرون بحياتهم في شمال الأطلسي العاصف ممكنة.

عندما يستوطن مهاجرون من مستعمرة ما وراء البحار أرضاً جديدة، يتضمن عادة أسلوب الحياة التي يعيشونها أشياء من أسلوب الحياة التي اعتادوا عليها في وطنهم الأصلي - فيتراكم «رأسمال ثقافي» من المعرفة، والمعتقدات، وسبل العيش، والتنظيم الاجتماعي في وطنهم الجديد. يصح هذا خاصة عندما يحتلون أرضاً -كما حدث مع الفايكنغ- تكون إما غير مأهولة، أو يقطنها شعب لا صلات كثيرة للمستوطنين معه. حتى في الولايات المتحدة اليوم، حيث ينبغي على المهاجرين الجدد التعامل مع عدد كبير من السكان الأمريكيين، ما تزال كل مجموعة مهاجرة تحافظ على العديد من مميزاتها الخاصة. على سبيل المثال، يوجد ضمن مدينة لوس أنجلوس فروق كبيرة بين القيم الثقافية، ومستويات التعليم، والوظائف والثروة للمجموعات المهاجرة حديثاً مثل الفيتناميين، والإيرانيين، والمكسيكيين، والإثيوبيين. وكانت المجموعات المختلفة قد تأقلمت بدرجات متفاوتة من السهولة مع المجتمع الأمريكي، وفقاً لأسلوب الحياة الذي أحضرته معها.

في حالة الفايكنغ، أيضاً، كان المجتمع الذي أقاموه على جزر شمال الأطلسي على غرار مجتمعات الفايكنغ الأوروبية التي تركها المهاجرون خلفهم. كانت تلك التركة من التاريخ الثقافي مهمة بشكل خاص فيما يخص الزراعة، وإنتاج الحديد، والنظام الطبقي، والمعتقد.

على الرغم من أننا نفكر في الفايكنغ بوصفهم محاربين وبحّارة، إلا أنهم يعتقدون أنفسهم مزارعين. أصبحت الحيوانات والمحاصيل التي تنمو جيداً في شمال النرويج عاملاً مهماً في تاريخ الفايكنغ ما وراء البحار، ليس لأنها كانت أنواع الحيوانات والنباتات التي يمكن لمستوطني الفايكنغ نقلها معهم إلى آيسلندة وغرينلاند فحسب، وإنما لأن تلك الأنواع مغروسة في قيم الفايكنغ الثقافية أيضاً. تحتل الأنواع المختلفة من الطعام وأساليب العيش مكانة مختلفة بين شعوب مختلفة: على سبيل المثال، منزلة الأبقار عالية لكن منزلة الماعز متدنية في قيم أصحاب مزارع الماشية في شرق الولايات المتحدة. تظهر المشكلات عندما لا تكون الممارسات الزراعية للمهاجرين في أرضهم الأصلية مناسبة لأرضهم الجديدة. يكافح الأستراليون اليوم، على سبيل المثال، مع سؤال يتمحور حول هل الأغنام التي جلبوها معهم من بريطانية قد أضرت أكثر مما أفادت في بيئات أسترالية؟. كما سنرى، كان لمقارنات مشابهة بين ما هو مناسب في الأرض الجديدة والقديمة عواقب وخيمة على اسكندنافيي غرينلاند.

تنمو الأنعام بشكل أفضل من المحاصيل الزراعية في مناخ النرويج البارد. كانت الأنعام من الأنواع الخمسة نفسها التي وفرت الأساس لإنتاج الطعام في الهلال الخصيب وأوروبة آلاف السنين: أبقار، وأغنام، وماعز، وخنازير وخيول. من بين تلك الأنواع، كانت التي تحتل المكانة الأفضل الخنازير التي يتم تربيتها للحمها، والأبقار للحصول على منتجاتها مثل الجبن، والخيول التي يتم استعمالها للانتقال وللدلالة على المكانة الاجتماعية. في قصص اسكندنافية القديمة البطولية، كان لحم الخنزير الطعام الذي يتغذى عليه محاربو إله حرب الاسكندنافيين أودين يومياً في فالهالا (دار الخلود) بعد موتهم. وكانت الأنعام التي تحتل مرتبة أدنى كثيراً، لكنها مع ذلك مفيدة اقتصادياً،

هي الأغنام والماعز التي يتم الاحتفاظ بها للحصول على حليبها وصوفها أو شعرها وليس للحمها.

كشف إحصاء للعظام أثناء التنقيب في كومة نفايات تعود لمزرعة أحد الأمراء من القرن التاسع في جنوب النرويج الأعداد النسبية للأنواع الحيوانية المختلفة التي استهلكتها أسرة الأمير. كانت نصف عظام الأنعام في المهاد لأبقار، وثلثها لخنازير، وخُمسها فقط للأغنام والماعز. يمكننا الافتراض أن أحد زعماء الفايكنغ الذي كان يرغب بإقامة مستعمرة في ما وراء البحار سيأخذ إليها المزيج نفسه من الأنواع. بالفعل، تم العثور على مزيج مشابه في أكداس نفايات من مزارع فايكنغ مبكرة في غرينلاند وآيسلندة. على أي حال، تختلف حصص العظام في المزارع التي أُقيمت في وقت متأخر هناك، لأن بعض تلك الأنواع كانت أقل تأقلماً من الأخرى مع ظروف غرينلاند وآيسلندة؛ انخفضت أعداد الأبقار بمرور الوقت، واختفت الخنازير تقريباً، لكن أعداد الأغنام والماعز ازدادت.

كلما عاش المرء في منطقة أبعد إلى الشمال في النرويج، زادت أهمية وضع الأنعام داخل حظائر وتقديم الطعام لها في الشتاء، بدلاً من تركها في الخارج تبحث عن الطعام من تلقاء نفسها. لهذا كان على محاربي الفايكنغ الأبطال هؤلاء في الواقع أن يقضوا الكثير من الوقت أثناء الصيف والخريف في حصاد، وجمع وتجفيف العلف لإطعام الأنعام شتاءً، بدلاً من خوض المعارك التي كانوا مشهورين بها.

في مناطق كان فيها المناخ معتدلاً بما يكفي للسماح بالزراعة، عمل الفايكنغ على زراعة المحاصيل المعتادة، وخاصة الشعير. وكانت المحاصيل الأخرى الأقل أهمية من الشعير (لأنها أقل قدرة على الاحتمال) الشوفان، والقمح، والجاودار؛ فيما تضمنت الخضار القرنبيط، والبصل، والبازلاء والفاصولياء؛ والكتان لصناعة القماش؛ وحشيشة الدينار لصنع الجعة. في مواقع بعيدة جداً في شمال النرويج، تراجعت أهمية المحاصيل الزراعية مقارنة بالأنعام. وكانت الحيوانات البرية مصدراً رئيساً لحصول السكان المحليين على البروتين – وكذلك الأسماك، التي تشكل نصف أو أكثر من عظام الحيوانات في مهاد الفايكنغ في النرويج. وتضمنت حيوانات الصيد الفقمة وثدييات بحرية أخرى، والرنة

والأيائل وثدييات برية صغيرة، والطيور البحرية التي كان يتم اصطيادها في مستعمرات تناسلها إضافة إلى البط وطيور الماء.

تخبرنا الأدوات الحديدية التي اكتشفها علماء الآثار في مواقع الفايكنغ على أنهم استعملوا الحديد لأغراض متعددة: أدوات زراعية ثقيلة مثل المحاريث، والمعاول، والفؤوس، والمناجل؛ وأدوات منزلية صغيرة بما فيها السكاكين، والمقصات، وإبر الخياطة؛ والمسامير، والتباشيم (الدسار) وأدوات تشييد أخرى؛ والمعدات العسكرية بالطبع، ولا سيما السيوف، والرماح، والبلطات، والدروع. تسمح لنا بقايا أكوام الصهر وحفر إنتاج الفحم في مواقع تصنيع الحديد معرفة كيف استطاع الفايكنغ الحصول على حديدهم. لم يتم ذلك تعديناً على نطاق صناعي في معامل مركزية، وإنما بعمليات طَرْق ضيقة النطاق في كل مزرعة على حده. وكانت المادة الأولية ما يدعى حديد المستنقعات المنتشرة في اسكندنافية: أي أكسيد الحديد الذي ينحل بالماء ثم يترسب نتيجة مواد حامضية أو بكتريا في مستنقعات وبحيرات. فيما تنتقي شركات تعدين الحديد الحالية خاماً يحتوي بين 30 و95% من أكسيد الحديد، كان حدّادو الفايكنغ يقبلون خاماً يحتوي على نسبة أقل كثيراً، كانت تصل أحياناً إلى 1% فقط من أكسيد الحديد. وحين يتم تحديد مثل تلك الرواسب «الغنية بالحديد»، يتم تجفيف الخام، وتسخينه إلى درجة الانصهار في فرن من أجل فصل الحديد عن الشوائب (الخبث)، وطرقه لتنظيفه، ثم إدخاله الكير لمنحه الشكل المطلوب.

لا ينتج عن حرق الخشب نفسه حرارة تكفي للعمل على الحديد. بدلاً من ذلك، ينبغي أولاً حرق الخشب لتحويله إلى فحم، يحتفظ بحرارة عالية بما يكفي. أظهرت دراسات في عدة دول أن الأمر يتطلب عادة نحو أربعة أرطال من الخشب لصنع رطل واحد من الفحم. بسبب ذلك، إضافة إلى انخفاض نسبة الحديد في حديد المستنقعات، كان استخراج الحديد وصناعة الأدوات وحتى إصلاح المعدات يتطلب من الفايكنغ كميات هائلة من الخشب، أصبحت عاملاً حاسماً في تاريخ غرينلاند الفايكنغ، حيث لم تعد الأشجار تستطيع سد الطلب المتزايد عليها.

فيما يخص النظام الاجتماعي الذي حمله الفايكنغ معهم إلى ما وراء البحار من البر الاسكندنافي الرئيس، نجد أنه كان مقسّماً إلى مراتب منفصلة مع طبقات تتراوح من المستوى الأدنى للعبيد الذين يتم سبيهم في الغارات، إلى الأحرار وصولاً إلى الزعماء. كانت ممالك موحدة كبيرة (مقارنة بالإمارات المحلية الصغيرة بقيادة أمراء ربما يحملون لقب «ملك») تظهر آنذاك في اسكندنافية أثناء توسع الفايكنغ، وكان على مستوطني الفايكنغ في ما وراء البحار التعامل أخيراً مع ملوك النرويج و(لاحقاً) الدانمرك. على أي حال، كان المستوطنون قد هاجروا هرباً من القوة المتزايدة للذين سيصبحون ملوك النرويج، لهذا لم يوجد سواء في آيسلندة أو غرينلاند ملوك. بدلاً من ذلك، بقيت السلطة هناك في أيدي أرستقراطية الزعماء العسكرية. كانوا يستطيعون تقديم قواربهم فقط، ومجموعة كاملة من الماشية بما فيها الأبقار الثمينة التي تصعب العناية بها إضافة إلى الأغنام والماعز التي تتطلب عناية أقل. كان للزعيم أتباع، وخدم ومناصرون بينهم رقيق، وعمال أحرار، مزارعون مقيمون ومزارعون أحرار مستقلون.

تنافس الزعماء باستمرار مع بعضهم بوسائل سلمية وحربية. تضمنت المنافسة السلمية سعي الزعماء للتفوق على بعضهم في منح العطايا وإقامة الولائم، وكانوا بذلك يزدادون هيبة، ويكافئون أتباعهم ويكسبون حلفاء. كدّس الزعماء الثروة الضرورية عبر التجارة، وشن الغارات ومنتجات مزارعهم الخاصة. لكن مجتمع الفايكنغ كان عنيفاً أيضاً، قاتل فيه الزعماء وأتباعهم بعضهم بعضاً في الداخل إضافة إلى قتال شعوب أخرى في ما وراء البحار. كان الخاسرون في تلك المعارك الضروس هم الذين جرّبوا حظهم في ما وراء البحار. على سبيل المثال، في ثمانينيات القرن العاشر الميلادي، عندما تعرض زعيم من آيسلندة يدعى إيريك الأحمر للهزيمة وتم نفيه، قام باستكشاف غرينلاند وقاد عصبة من أتباعه للاستيطان في أفضل المواقع الزراعية هناك.

كان الزعماء يتخذون القرارات الحاسمة في مجتمع الفايكنغ، وكانوا متحفزين لإعلاء مكانتهم، حتى في حالات يمكن لها أن تتناقض مع صالح المجتمع الموجود آنذاك كله وعلى الجيل المقبل أيضاً. كنا قد عرفنا مثل نزاعات المصالح تلك بين زعماء جزيرة

الفصح وملوك المايا (فصلين 2 و5)، وكان لذلك أيضاً عواقب وخيمة على مصير مجتمع غرينلاند الاسكندنافي (فصل 8).

عندما بدأ الفايكنغ توسعهم في ما وراء البحار في القرن التاسع الميلادي، كانوا «وثنيين» يعبدون آلهة تقليدية في المعتقد الجرماني، مثل إله الخصب فري، وإله السماء ثيور، وإله الحرب أودين. أكثر ما أرعب المجتمعات الأوروبية التي استهدفتها غارات الفايكنغ هي أنهم لم يكونوا نصارى ولم يكونوا يعيرون اهتماماً لمحرمات مجتمع نصراني. على النقيض تماماً: بدا أنهم يشعرون بسعادة سادية في استهداف الكنائس والأديرة في هجماتهم. على سبيل المثال، عندما قام أسطول ضخم للفايكنغ سنة 843 ميلادية بنهب كل المناطق المحاذية لنهر لوار في فرنسة، بدأ المغيرون بمهاجمة كاتدرائية نانت عند مصب النهر وقتلوا الأسقف وكل الكهنة. في الواقع، لم يكن الفايكنغ يجدون متعة خاصة سادية في نهب الكنائس، أو كانوا متحيزين ضد أي شكل من أشكال الغنائم. فيما كانت ثروات الكنائس والأديرة التي لم تكن عليها حراسة مصدراً واضحاً للراغبين بالثراء السريع، كان الفايكنغ سعداء أيضاً بمهاجمة المراكز التجارية الثرية كلما سنحت الفرصة لذلك.

عندما استقروا في ما وراء البحار في أراضٍ نصرانية، كان الفايكنغ مستعدين تماماً للزواج من سكانها وتبني العادات المحلية، وتضمن ذلك اعتناق النصرانية. أسهم تحول معتقد فايكنغ ما وراء البحار في ظهور النصرانية في وطنهم الاسكندنافي، لأن الفايكنغ العائدين في زيارات كانوا ينقلون معلومات عن المعتقد الجديد، وهكذا بدأ زعماء وملوك اسكندنافية بالتعرف إلى الميزات السياسية التي يمكن للنصرانية أن تحققها لهم. اعتنق بعض الزعماء الاسكندنافيون النصرانية بشكل غير رسمي، حتى قبل أن يفعل ملكهم ذلك. ما كان فاصلاً في نشر النصرانية في اسكندنافية هو اعتناق الدانمرك «الرسمي» لها في ظل الملك هارولد بلوتوث نحو سنة 960 ميلادية، وبداية ذلك في النرويج نحو 995 ميلادية، والسويد أثناء القرن الآتي.

عندما بدأت النرويج تعتنق النصرانية، تبعتها مستوطنات فايكنغ ما وراء البحار في أوركين، وشتلاند، وفيرو، وآيسلندة وغرينلاند. يعود ذلك في جزء منه إلى أن المستوطنات

لم يكن لديها سفن كثيرة خاصة بها، وكانت تعتمد على الشحن النرويجي للتجارة، وقد أدركت أن من المستحيل لها البقاء على الوثنية بعد أن أصبحت النرويج نصرانية. على سبيل المثال، عندما اعتنق ملك النرويج أولاف الأول النصرانية، حظر على أهل آيسلندة الوثنيين التجارة مع النرويج، وقبض على من كان يزور النرويج منهم (بمن فيهم أقارب لقادة آيسلندة الوثنيين البارزين) وهدّد بتشويه أو قتل هؤلاء الرهائن إذا لم تتبرأ آيسلندة من الوثنية. في اجتماع للجمعية الوطنية في آيسلندة في صيف سنة 999 ميلادية، قبل سكانها الأمر الواقع وأعلنوا أنفسهم نصارى. في تلك السنة تقريباً، أدخل ليف إيركسون، ابن إيريك الأحمر الذي كان قد أسّس مستعمرة غرينلاند، النصرانية إلى غرينلاند.

لم تكن الكنائس النصرانية التي تم بناؤها في آيسلندة وغرينلاند بعد سنة 1000 ميلادية كينونات مستقلة تمتلك مبانيها وأراضيها الخاصة بها، كما هو حال الكنائس المعاصرة. بدلاً من ذلك، كان مزارع/ زعيم محلي قد بناها على أرضه الخاصة لتكون إحدى ممتلكاته، وكان المزارع مخولاً الحصول على حصة من الرسوم التي كانت تلك الكنيسة تجمعها من السكان المحليين. كان الأمر كما لو أن الزعيم يتفاوض على حقوق الامتياز مع مكدونالد، وكان يحصل بموجب الاتفاق على احتكار محلي للعلامة التجارية، يقوم بتشييد كنيسة ويقدّم سلعة وفقاً لمعايير مكدونالد، يحتفظ بجزء من الأرباح لنفسه فيما يرسل الباقي إلى الإدارة المركزية – في هذه الحالة، البابا في روما عبر الأسقفية في نياداروس (تروندهايم المعاصرة)– كان طبيعياً أن تكافح الكنيسة الكاثوليكية لجعل كنائسها مستقلة عن المالكين المزارعين. وقد نجحت الكنيسة أخيراً في سنة 1297 في إرغام مالكي الكنائس في آيسلندة على نقل ملكية العديد من مزارع الكنائس إلى الأسقف. ولا وجود لسجلات تظهر إن حصل شيء مشابه أيضاً في غرينلاند، لكن قبول غرينلاند (اسمياً على الأقل) بالحكم النرويجي سنة 1261 ربما يكون شكّل عامل ضغط على مالكي الكنائس فيها. نعرف أن أسقف بيرغن أرسل سنة 1341م إلى غرينلاند مراقباً عاماً يدعى إيفار باردارسون، الذي عاد أخيراً إلى النرويج مع قائمة تفصيلية ووصف لكل

كنائس غرينلاند، وقال إن الأسقف كان يحاول تشديد قبضته على «امتيازات» غرينلاند كما فعل في آيسلندة.

شكّل اعتناق النصرانية انفصاماً ثقافياً كبيراً لمستعمرات فايكنغ ما وراء البحار. كانت ادعاءات النصرانية بالتفرّد، مثل المعتقد الصحيح الوحيد، تعني التخلي عن التقاليد الوثنية. وأصبح الفن والهندسة نصرانيين واعتمدا على نماذج من القارة الأوروبية. بنى فايكنغ ما وراء البحار كنائس كبيرة وحتى كاتدرائيات مماثلة بالحجم لتلك الأكثر شهرة على البر الرئيس لاسكندنافية، وكانت كبيرة في تأثيراتها في عدد السكان القليل الذي يعتني بها. أخذت المستعمرات النصرانية على محمل الجد ودفعت رسوماً لروما، لدينا سجلات عن الرسوم الصليبية التي أرسلها أسقف غرينلاند إلى البابا سنة 1282 (دفعت على شكل أنياب فيل البحر وجلود الدببة القطبية وليس أموالاً)، وكذلك وصل بابوي رسمي في سنة 1327 يقر باستلام رسوم ست السنوات من غرينلاند. أصبحت الكنيسة الوسيلة الرئيسة لإدخال آخر الأفكار الأوروبية إلى غرينلاند، خاصة أن كل أسقف تم تعيينه في غرينلاند كان من البر الرئيس لاسكندنافية وليس من أهل غرينلاند المحليين.

ربما تكون النتيجة الأبرز لاعتناق المستوطنين النصرانية تتعلق بكيفية رؤيتهم لأنفسهم. ذكّرتني الخلاصة كيف كان الأستراليون، بعد وقت طويل من تأسيس المستعمرات البريطانية في ذلك البلد سنة 1788م، يفكرون بأنهم ليسوا شعباً آسيوياً ومن المحيط الهادئ، وإنما بريطانيون وراء البحار؛ وكانوا لا يزالون مستعدين للموت سنة 1915م في معارك بعيدة عنهم مع البريطانيين ضد الأتراك لم تكن في صالح أسترالية. بالطريقة نفسها، فكّر مستوطنو الفايكنغ في جزر شمال الأطلسي بأنهم نصارى أوروبيون. وكانوا يتبنون التغييرات في البر الرئيس فيما يتعلق بعمارة الكنائس، ومراسم الدفن، ووحدات القياس. سمحت تلك الهوية المشتركة لسكان غرينلاند الذين كان عددهم بالآلاف بالتعاون مع بعضهم، وتحمل الصعاب، والحفاظ على وجودهم في بيئة قاسية طوال أربعة قرون. كما سنرى، منعهم ذلك أيضاً من التعلم من الأسكيمو، ومن تعديل هويتهم بطرق ربما كانت قد سمحت لهم بالبقاء إلى ما بعد تلك القرون الأربعة.

تشكل مستعمرات الفايكنغ الست على جزر شمال الأطلسي ست تجارب متمايزة في إقامة مجتمعات من الأسلاف أنفسهم. كما ذكرت في بداية هذا الفصل، وصلت تلك التجارب الست إلى نتائج مختلفة: استمر وجود مستعمرات أوركني، وشيتلاند وفيرو أكثر من ألف سنة دون أن يتعرض بقاؤها لهزّة عنيفة، واستمرت مستعمرة آيسلندة أيضاً، ولكن كان عليها التغلب على الفقر وصعوبات سياسية جدّية، وانتهت مستعمرة غرينلاند بعد نحو 450 سنة من إنشائها، وهُجرت مستعمرة فنلاند أثناء العقد الأول من تأسيسها. والسبب في هذه النهايات المتنوعة هو الاختلافات البيئية بين المستعمرات. والمتغيرات البيئية الرئيسة الأربع التي أثّرت في النتيجة النهائية هي: المسافات عبر المحيط أو أوقات الإبحار على متن سفن من النرويج وبريطانية، والمقاومة التي أبداها المقيمون من غير الفايكنغ إن كان هناك أحد منهم، والأرض المناسبة للزراعة ويعتمد ذلك أساساً على الارتفاع والمناخ المحلي، والهشاشة البيئية ولا سيما قابلية التربة للتعرية والتصحر.

مع وجود ست تجارب فقط وأربعة متغيرات يمكن أن تشرح تلك النتائج، لا يمكننا أن نأمل بإحراز تقدم في بحثنا للحصول على تفسيرات كما فعلنا في المحيط الهادئ، حيث كانت لدينا 81 نتيجة (81 جزيرة) مقارنة بتسعة متغيرات فقط. من أجل التحليل الإحصائي المتعلق بهذه المسألة التي يؤمل أن يكون لها حظ من النجاح، يحتاج المرء إلى المزيد من الخلاصات التجريبية المنفصلة لاختبارها. لهذا في المحيط الهادئ، مع وجود الكثير من الجزر، يكون التحليل الإحصائي وحده كافياً لتحديد الأهمية النسبية لتلك المتغيرات المستقلة. في شمال الأطلسي، ليس هناك ما يكفي من التجارب الطبيعية المنفصلة لتحقيق هذا الهدف. ستكشف الإحصائيات، التي تضم تلك المعلومات، أنه لا يمكن حل مشكلة الفايكنغ. ستكون هذه معضلة تتكرر باستمرار فيما يخص المؤرخين الذين يحاولون استعمال الأسلوب المقارن لفهم مشكلات التاريخ البشري: الواضح أنه يوجد العديد من المتغيرات المستقلة المحتملة، والقليل من النتائج المنفصلة لتحديد أهمية تلك المتغيرات إحصائياً.

لكن المؤرخين يعرفون عن المجتمعات البشرية أكثر من مجرد الظروف البيئية الأولية والنتائج النهائية؛ لديهم أيضاً كميات كبيرة من المعلومات بشأن سلسلة الخطوات التي

تصل بين الظروف الأولية والنتائج. تحديداً، يمكن لدارسي الفايكنغ اختبار أهمية أوقات الإبحار في المحيط بإحصاء الأعداد المسجلة من رحلات السفن والسلع التي كانت تنقلها، ويمكنهم اختبار تأثيرات المقاومة المحلية من السجلات التاريخية للقتال بين الغزاة الفايكنغ والسكان المحليين، ويستطيعون اختبار قابلية التربة للزراعة من السجلات التي تظهر أنواع النباتات والماشية التي كانت موجودة في تلك المناطق، ويمكنهم اختبار الهشاشة البيئية من الدلائل التاريخية على التصحر وتعرية التربة (مثل عدد أبواغ غبار الطلع ومستحاثات النباتات)، وبتحديد نوع الخشب والمواد الأخرى التي كان يتم استعمالها للبناء. مع معرفتنا بهذه الخطوات المتداخلة إضافة إلى النتائج، دعونا نتفحص الآن خمساً من أصل ست مستعمرات في شمال الأطلسي بسياق العزلة المتزايدة وتناقص الثروة: أوركني، وشتلاند، وفيرو، وآيسلندة وفنلاند. سنناقش في الفصلين القادمين بالتفصيل مصير غرينلاند الفايكنغ.

أوركني أرخبيل من الجزر قبالة الطرف الشمالي لبريطانية، تلتف حول ميناء سكابا فلو الكبير الذي كان القاعدة الرئيسة للبحرية البريطانية في كلتا الحربين العالميتين. من جون أوغروتس، أبعد نقطة شمالاً في البر الرئيس الاسكتلندي، إلى أقرب جزيرة أوركني نحو 11 ميلاً فقط، ويمكن قطع المسافة من أوركني إلى النرويج أثناء 24 ساعة من الإبحار في سفن الفايكنغ. جعل ذلك سهلاً على الفايكنغ النرويجيين غزو أوركني، واستيراد ما يريدونه من النرويج أو الجزر البريطانية، ونقل صادراتهم إلى الخارج بتكلفة رخيصة. تدعى أوركني جزراً قارية، وهي فعلاً مجرد جزء من البر الرئيس البريطاني الذي انفصل عنها عندما اختلفت مستويات البحر في أنحاء العالم نتيجة ذوبان الجبال الجليدية مع نهاية العصور الجليدية قبل 14.000 سنة مضت. هاجرت فوق ذلك الجسر البري العديد من أنواع ثدييات اليابسة بما فيها الظبي (المعروف بالغزال الأحمر في بريطانية)، وثعلب الماء والأرنب البري وشكّلت صيداً ثميناً. سرعان ما أخضع الغزاة الفايكنغ السكان المحليين المعروفين باسم بيكت.

نظراً لوقوعها في أقصى جنوب مستعمرات الفايكنغ شمال الأطلسي عدا فنلاند، وفي منطقة تيارات خليجية، كان مناخ أوركني معتدلاً. وكانت تربتها الخصبة العميقة تتجدد

نتيجة ذوبان الجليد ومن ثمّ فهي ليست معرضة لخطر تعرية كبير. كانت الزراعة في أوركني لهذا السبب قائمة بفضل بيكت قبل وصول الفايكنغ، واستمرت معهم، وبقيت إنتاجيتها عالية حتى يومنا هذا. تتضمن صادرات أوركني الزراعية المعاصرة لحم البقر والبيض، إضافة إلى لحم الخنزير وبعض المحاصيل الأخرى.

استولى الفايكنغ على أوركني نحو سنة 800 ميلادية، واستعملوا الجزر قاعدة للإغارة على البرين الرئيسين البريطاني والأيرلندي القريبين، وبناء مجتمع ثري قوي بقي لبعض الوقت مملكة اسكندنافية مستقلة. إحدى مظاهر ثروة فايكنغ أوركني كنز يزن 17 رطلاً من الفضة دُفن نحو سنة 950 ميلادية، ولا مثيل له في أي جزيرة أخرى في شمال الأطلسي ولا يوازيه حجماً سوى أكبر كنز فضة في البر الرئيس لاسكندنافية. إحدى المظاهر الأخرى هي كاتدرائية سان ماغنوس، التي تم بناؤها في القرن الثاني عشر على طراز كاتدرائية دورمهم البريطانية الكبيرة. انتقلت ملكية أوركني سنة 1472 ميلادية دون حرب من النرويج (جزء من الدانمرك حينها) إلى اسكوتلندة لسبب تافه يتعلق بسياسات الحكم (طالب ملك اسكوتلندة جيمس بتعويض عن إخفاق الدانمرك في دفع المهر الذي كان يفترض أن يرافق الأميرة الدانمركية التي تزوجها). استمر أهل جزر أوركني أيام الحكم الاسكتلندي بتكلم لغة اسكندنافية لغاية القرن الثامن عشر. يبقى سكان أوركني اليوم المنحدرون من بيكت، والغزاة الاسكندنافيون مزارعين ناجحين ويزيدهم ثراءً نفط بحر الشمال.

ينطبق بعض ما قلته عن أوركني للتو أيضاً على مستعمرة شمال الأطلسي الآتية وهي جزر شتلاند. كان يسكنها أصلاً مزارعون بيكت أيضاً، تغلب عليهم الفايكنغ في القرن التاسع، وتم التنازل عنها لأسكتلندة سنة 1472م، وتكلم أهلها الاسكندنافية بعض الوقت بعد ذلك، وتستفيد حالياً من نفط بحر الشمال. الاختلافات هي أنها أبعد قليلاً إلى الشمال (50 ميلاً إلى الشمال من أوركني و130 ميلاً إلى الشمال من اسكوتلندة)، وأكثر رياحاً، وتربتها فقيرة بالمواد المغذية، والزراعة فيها أقل إنتاجية. كانت تربية الأغنام للحصول على الصوف الدعامة الاقتصادية الأساس في شتلاند كما في أوركني، لكن تربية الماشية أخفقت في شتلاند واستبدلت بها زيادة التركيز على صيد الأسماك.

يأتي بعد أوركني وشتلاند وبعزلة تامة جزر فيرو، التي تقع على بعد 200 ميل إلى الشمال من أوركني و400 ميل إلى الغرب من النرويج. جعل ذلك وصول سفن الفايكنغ التي تحمل المستوطنين والسلع التجارية ممكناً إلى فيرو، لكن خارج قدرة السفن الأولى. وجد الفايكنغ فيرو غير مأهولة عدا ربما بعض الناسكين الأيرلنديين الذين تدور حول وجودهم هناك قصص غامضة لكن لا دليل أثرياً يثبتها.

تقع فيرو على بعد 300 ميل إلى الجنوب من القطب الشمالي، في منطقة متوسطة بين أكبر بلدتين على الساحل الغربي للنرويج (بيرغين وتروندهايم)، وتتمتع بمناخ بحري معتدل. على أي حال، موقعها الأبعد شمالاً من أوركني وشتلاند يعني موسم زراعة أقصر للمزارعين ومربي الماشية المحتملين. يتناثر الملح من المحيط ويستقر على كل أجزاء الجزر بسبب مساحتها الصغيرة، ويترافق مع رياح قوية تمنع ظهور غابات عليها. لم تكن الطبقة النباتية الأصلية تتألف من نباتات أطول من الصفصاف، والبتولا، والحور والعرعر التي سرعان ما قطعها أول المستوطنين ومنعوا نموها من جديد برعي الأغنام في المناطق التي كانت تنمو فيها. كان ذلك سيشكل في مناخ أكثر جفافاً وصفة لتعرية التربة، لكن جزر فيرو رطبة للغاية ويلفها الضباب و«تنعم» بأمطار تصل معدلات هطولها إلى 280 يوماً كل سنة، ويحدث ذلك على شكل عدّة زخّات من المطر في معظم الأيام. تبنى المستوطنون أنفسهم أيضاً سياسات للتخفيف من تعرية التربة، مثل بناء الجدران والمصاطب لمنع انجراف التربة. كان مستوطنو الفايكنغ في غرينلاند ولا سيما في آيسلندة أقل نجاحاً في السيطرة على التعرية، ليس لأنهم كانوا أكثر طيشاً من أهل جزر فيرو لكن لأن تربة الجزيرة ومناخ غرينلاند جعلا خطر التعرية أكبر.

استوطن الفايكنغ فيرو أثناء القرن التاسع. وتمكّنوا من زراعة بعض الشعير لكن المحاصيل الأخرى كانت ضعيفة أو لم تنمُ على الإطلاق؛ حتى اليوم، فقط 6% من أرض جزر فيرو مخصصة لزراعة البطاطا والخضر الأخرى. تحتل الأبقار والخنازير مكانة بارزة في فيرو، وقد تخلى المستوطنون حتى عن الماعز الأدنى مكانة أثناء 200 السنة الأولى لمنع الرعي الجائر. بدلاً من ذلك، يركز اقتصاد فيرو على تربية الأغنام لتصدير الصوف، التي أُضيف إليها لاحقاً صادرات السمك المملح، واليوم صادرات سمك القد،

والهلبوت (سمك بحري مفلطح الجسم) وسلمون المسامك. مقابل صادرات الصوف والأسماك تلك، كان أهل الجزيرة يستوردون من النرويج وبريطانية الضروريات الأساسية التي لا تتوافر أبداً أو تكون غير كافية في بيئة فيرو: ولا سيما كميات كبيرة من الأخشاب، إذ لا يوجد خشب بناء متوافر محلياً عدا ما يقذفه البحر؛ الحديد لصنع الأدوات، المفقود محلياً بشكل كامل أيضاً؛ وأحجار ومواد أخرى، مثل حجر الرحى وحجر الشحذ، وحجر الصابون اللين الذي يتم نحت أدوات المطبخ منه بدلاً من الفخار.

فيما يخص تاريخ فيرو بعد الاستيطان، اعتنق أهل الجزيرة النصرانية نحو سنة 1000 ميلادية، أي في الوقت نفسه تقريباً مع مستعمرات الفايكنغ شمال الأطلسي، وبنوا لاحقاً كاتدرائية قوطية. أصبحت الجزر تابعة للنرويج في القرن الحادي عشر، وانتقلت مع النرويج إلى الدانمرك سنة 1380م عندما أصبحت النرويج نفسها تحت حكم التاج الدانمركي، ونالت حكماً محلياً ضمن الدانمرك سنة 1948م. ما يزال السكان البالغ عددهم 47.000 نسمة اليوم يتكلون لغة فيرو، المستمدة مباشرة من الاسكندنافية القديمة والشبيهة كثيراً بالآيسلندية المعاصرة؛ ويستطيع سكان فيرو وآيسلندة فهم كلام بعضهم والنصوص الاسكندنافية القديمة.

بالمختصر، تجنبت فيرو المشكلات التي أحاطت بآيسلندة وغرينلاند الاسكندنافيتين ومنها: تعرية التربة والبراكين النشيطة على آيسلندة، وموسم الزراعة القصير، والمناخ الجاف، ومسافات الإبحار البعيدة، والسكان المحليون العدائيون على غرينلاند. على الرغم من أنهم أكثر عزلة من أوركني وشتلاند، وأفقر بالموارد الطبيعية مقارنة بأوركني خاصة، استطاع أهل جزر فيرو متابعة حياتهم دون صعوبة باستيراد كميات كبيرة من الضروريات – خيار لم يكن متوافراً لأهل غريندلاند.

كان هدف زيارتي الأولى لآيسلندة حضور مؤتمر برعاية الناتو (منظمة حلف شمال الأطلسي) لترميم البيئات المتضررة. وكان مناسباً تماماً أن الناتو قد اختار آيسلندة مقراً للمؤتمر، لأنها بيئياً البلد الأكثر تضرراً في أوروبة. منذ بدء الاستيطان البشري، تم تدمير معظم أشجار البلد وطبقته النباتية الأصلية، وانجرفت نحو نصف التربة

نحو المحيط. نتيجة لذلك الضرر، أصبحت مناطق كبيرة من آيسلندة كانت خضراء عندما حط عليها الفايكنغ عبارة عن صحراء قاحلة تفتقر للحياة دون أبنية، أوطرق أو أي دلائل على وجود بشر. عندما أرادت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا إيجاد مكان على الأرض يشبه سطح القمر، حتى يتدرب روّاد الفضاء على أول هبوط على القمر في بيئة شبيهة بما كانوا سيواجهونه، اختارت منطقة من آيسلندة كانت خضراء سابقاً وأضحت قاحلة تماماً في ذلك الوقت.

العناصر الأربعة التي شكّلت بيئة آيسلندة هي الحمم البركانية، والجليد، والماء والرياح. تقع آيسلندة في شمال المحيط الأطلسي على بعد نحو 600 ميل إلى الغرب من النرويج، فيما يدعى سلسلة وسط الأطلسي حيث تبتعد الصفيحتان الأمريكية والأوروبية عن بعضهما وتثور البراكين من وقت لآخر من المحيط لتشكل قطعاً من الأراضي الجديدة، أكبرها آيسلندة. يثور أحد براكين آيسلندة العديدة بمعدل كل عقد أو اثنين. إلى جانب البراكين نفسها، ينابيع آيسلندة الحارة والمناطق الجغرافية الحارة كثيرة جداً حتى إن معظم المنازل في البلد (بما في ذلك كل العاصمة ريكيافيك) لا تعتمد في التدفئة على الوقود الأحفوري وإنما تستفيد من حرارة البراكين.

العنصر الثاني في بيئة آيسلندة هو الجليد، الذي يتشكل ويبقى على شكل قشرة على معظم الهضاب الداخلية للجزيرة لأنها تقع على ارتفاع عالٍ (ما يصل إلى 6952 قدم)، أسفل الدائرة القطبية الشمالية تماماً، وهي لذلك باردة جداً. تصل المياه التي تسقط على شكل أمطار وثلوج إلى المحيط في أنهار جليدية تفيض دائماً، وفي فيضانات كبيرة تحدث بين الفينة والأخرى عندما ينهار سد طبيعي من الحمم البركانية أو الجليد عبر بحيرة، أو عندما يتسبب ثوران بركان فجأة تحت القشرة الجليدية بإذابة الكثير من الثلج. أخيراً، آيسلندة مكان عاصف للغاية. إن التفاعل بين هذه العناصر الأربعة المتمثّلة في البراكين، والبرد، والماء والرياح هو ما جعل آيسلندة عرضة للتعرية.

عندما وصل أول المستوطنين الفايكنغ إلى آيسلندة، كانت براكينها وينابيعها الحارة مناظر غريبة، ولا تشبه أي شيء معروف لهم في النرويج أو الجزر البريطانية، لكن

الطبيعة بدت على الرغم من ذلك مألوفة وتشجع على الاستقرار فيها. تنتمي تقريباً كل النباتات والطيور إلى أنواع أوروبية معروفة. وكانت المناطق المنخفضة مغطاة بأشجار البتولا وغابات الصفصاف التي تمت إزالتها بسهولة لإفساح المجال أمام ظهور المراعي. في تلك المواقع الخالية، في مناطق منخفضة تفتقر للأشجار مثل المستنقعات، وعلى ارتفاعات عالية فوق الحد الذي تنمو فيه الأشجار، وجد المستوطنون أعشاباً مورقة، وحشائش وطحالب مثالية لتربية الحيوانات التي كانت موجودة آنذاك في النرويج والجزر البريطانية. كانت التربة خصبة، وتصل في بعض المناطق إلى عمق 50 قدماً. على الرغم من القشرة الجليدية الكثيفة والموقع القريب من الدائرة القطبية الشمالية، جعلت تيارات الخليج الحارة المناخ في الأراضي المنخفضة معتدلاً بما يكفي في بعض السنوات لزراعة الشعير في الجنوب. وكانت البحيرات، والأنهار والمناطق المحيطة بها تفيض بالأسماك التي لم يكن يتم اصطيادها قطّ من قبل، وكذلك طيور البحر والبط الآمنة، فيما كانت الفقمة وفيل البحر تعيش بأمان على طول الساحل.

لكن تشابه آيسلندة الظاهر مع جنوب غرب النرويج وبريطانية لم يكن دقيقاً في ثلاثة عوامل حاسمة. أولاً: كان موقع الجزيرة الأبعد شمالاً، على بعد مئات الأميال إلى الشمال من جنوب غرب الأراضي الزراعية الرئيسة في النرويج، يعني مناخاً أكثر برودة وموسم زراعة أقصر، مما يجعل الزراعة مهمشة. أخيراً، عندما أصبح المناخ أكثر برودة في أواخر العصور الوسطى، تخلى المستوطنون عن زراعة المحاصيل ليصبحوا رعاة فقط. ثانياً: سمم الرماد الذي كانت الثورات البركانية تنثره بين الحين والآخر فوق مناطق واسعة علف الماشية. وكانت مثل تلك الثورات قد تسببت بشكل متكرر في تاريخ آيسلندة بموت الحيوانات والبشر جوعاً، ووقعت أسوأ تلك الكوارث سنة 1783 عندما ثار بركان ليكي وتضور بعد ذلك نحو خُمس عدد السكان جوعاً حتى الموت.

تتضمن أكبر مجموعة من المشكلات التي خدعت المستوطنين الاختلافات بين تربة آيسلندة الهشة غير المألوفة وتربتي النرويج وبريطانية المتماسكتين المعروفتين جيداً لهم. لم يستطع المستوطنون اكتشاف تلك الاختلافات، والسبب في ذلك أن بعضها غامض ولا يزال علماء التربة المختصون يحاولون فهمها، كما أن إحدى تلك الاختلافات لم تكن

مرئية بالعين المجردة وقد استغرق الأمر سنوات حتى ظهرت للعيان: تتشكل التربة في آيسلندة ببطء وتتعرض للتعرية بسرعة أكبر من تلك الموجودة في النرويج وبريطانية. في الواقع، عندما شاهد المستوطنون تربة آيسلندة الخصبة والسميكة، شعروا بالسعادة كما سيشعر أيٌّ منا عندما يرث حساباً مصرفياً فيه الكثير من الأموال، الذي سيفترض الحصول على نسبة الفائدة المعروفة عنه ويتوقع أن يدر عليه الحساب دفعات نقدية كبيرة كل سنة. لسوء الحظ، على الرغم من أن تربة آيسلندة وغاباتها الكثيفة كانت مبهجة للنظر -مقارنة بوجود حساب مصرفي فيه الكثير من الأموال- إلا أن تجددها كان بطيئاً جداً (كما لو أن نسبة الفائدة منخفضة جداً) منذ نهاية العصر الجليدي. اكتشف المستوطنون أخيراً أنهم لا يعيشون وفقاً لنسبة تجدد الجزيرة بيئياً كل سنة، وأنهم كانوا يأخذون من الرأسمال المتراكم للتربة والطبقة النباتية التي استغرق الأمر عشرة آلاف سنة لبنائها، واستنفدها المستوطنون أثناء عقود قليلة أو حتى سنة. لم يكن المستوطنون يستفيدون من التربة والطبقة النباتية بحيث تكون مستدامة عن غير قصد منهم، وكان يمكن للموارد أن تدوم طويلاً (مثل المسامك أو الغابات) لو لم يكن استغلالها أسرع من قدرتها على التجدد من تلقاء نفسها. كانوا بدلاً من ذلك يستغلون التربة والطبقة النباتية بالطريقة التي يستغل بها أصحاب المناجم النفط والثروات المعدنية، التي لا تعيد تجديد نفسها إلا ببطء شديد وتناقصت حتى اختفت كلها نهائياً.

ما الذي جعل تربة آيسلندة هشة للغاية وتشكيلها بطيئاً؟ ينبغي أن يكون السبب الرئيس على علاقة بأصلها. في النرويج، وشمال بريطانية وغرينلاند، التي تفتقر لبراكين نشيطة حالياً وكانت مغطاة بالجليد تماماً أثناء العصور الجليدية، نشأت التربة العميقة إما من الطمي البحري أو من الأنهار الجليدية التي عملت على حت الصخور التحتية وحمل ذرات التراب التي تراكمت لاحقاً على شكل راسب عندما ذاب النهر الجليدي. في آيسلندة، نجم عن ثورات البراكين الدائمة انبعاث سحب من الرماد الناعم في الهواء. تضمن ذلك الرماد جزيئات دقيقة حملتها الرياح القوية إلى معظم أرجاء البلد، ونجم عن ذلك تشكل طبقة من الرماد (تيفرا) يمكن أن تكون ناعمة مثل مسحوق التجميل. تنمو الطبقة النباتية أخيراً على ذلك الرماد الخصب الغني، وتغطيه وتحميه من التعرية. لكن عندما

يتم إزالة تلك الطبقة النباتية (من قبل الأغنام أو المزارعين الذين يحرقونها)، يصبح الرماد مكشوفاً مجدداً، مما يجعله عرضة للتعرية. ولأن الرماد كان خفيفاً بما يكفي لتذروه الرياح في المقام الأول، يبقى خفيفاً أيضاً لتحمله الرياح بعيداً من جديد. إضافة إلى تلك التعرية الناتجة عن الرياح، أزالت أمطار آيسلندة المحلية الغزيرة والفيضانات المتكررة الرماد بعملية التعرية، خاصة في المنحدرات الشديدة.

تتعلق الأسباب الأخرى لهشاشة تربة آيسلندة بهشاشة طبقتها النباتية. يحمي نمو النباتات التربة من التعرية بتغطيتها، وبإضافة مواد عضوية تزيد من تماسكها وكثافتها. لكن الطبقة النباتية تنمو ببطء في آيسلندة بسبب موقعها الشمالي، ومناخها البارد، وموسم النمو القصير. يقدم مزيج آيسلندة من التربة الهشة ونمو النباتات البطيء حلقة تغذية راجعة إيجابية للتعرية: بعد قضاء الأغنام أو المزارعين على الغطاء النباتي الذي يحمي التربة، تبدأ عندها عملية تعرية التربة ويصبح صعباً على النباتات أن تنمو من جديد لحماية التربة مجدداً، لهذا تنتشر عملية التعرية.

بدأ استيطان آيسلندة جدّياً نحو سنة 870م وانتهى عملياً سنة 930م عندما تم استيطان كل الأرض المناسبة للزراعة أو ادّعاء ملكيتها. جاء معظم المستوطنين من غرب النرويج، وكان الباقي فايكنغ هاجروا إلى الجزر البريطانية وتزوجوا من نساء كلتيات (سكان بريطانية القدماء). حاول هؤلاء المستوطنون إعادة بناء اقتصاد رعي شبيه بأسلوب الحياة التي كانوا قد اختبروها في النرويج والجزر البريطانية، ارتكز على خمسة حيوانات أصبحت من بينها الأغنام الأكثر عدداً في نهاية المطاف. كان يتم تخزين حليب الأغنام على شكل زبدة، وجبن ومنتج خاص بآيسلندة يدعى سكاير، وجدت أن مذاقه يشبه لبناً كثيفاً لذيذاً. اعتمد أهل آيسلندة على صيد الحيوانات البرية والأسماك لتنويع مصادر أغذيتهم، كما كشفت جهود صبورة لعلماء آثار قاموا بتحديد 47.000 عظماً في أكوام قمامة. سرعان ما تم القضاء على مستعمرات توالد فيل البحر، وتناقصت أعداد طيور البحر مما دفع الصيادين إلى تحويل اهتمامهم إلى الفقمة. أخيراً، أصبحت المصدر الرئيس للبروتين الحيواني من الأسماك – كل أنواع السلمون

في البحيرات والأنهار، إضافة إلى أسماك القد والقديد على طول الساحل. وكان وجود أسماك القد والقديد حاسماً في إبقاء أهل الجزيرة على قيد الحياة أثناء قرون العصر الجليدي الوسيط الصعبة وفي دفع اقتصاد آيسلندة اليوم.

في الوقت الذي بدأ فيه الاستيطان في آيسلندة، كانت ربع مساحة الجزيرة مغطاة بالغابات. قام المستوطنون بقطع الغابات للحصول على مراع، واستعمال الأشجار نفسها حطباً للنار، وخشباً للبناء، وفحماً. تمت إزالة نحو 80% من تلك الغابات الأصلية أثناء العقود القليلة الأولى، ووصل الأمر إلى إزالة 96% منها في ذلك الوقت، مما لم يترك سوى 1% فقط من مساحة آيسلندة التي كانت مغطاة بالغابات فيما مضى (صورة 16). تدل قطع الأخشاب الكبيرة التي تم العثور عليها في المواقع الأثرية المبكرة -شيء لا يصدق كما يبدو اليوم- أن معظم الأخشاب من قطع الأشجار تعرضت للتلف أو تم إحراقها، حتى أدرك أهل آيسلندة أنه لن يكون لديهم أخشاب في المستقبل القريب. حالما تمت إزالة الأشجار الأصلية، أخذت الأغنام ترعى تلك المساحات، وراحت الخنازير التي تم جلبها في البداية تأكل الجذور مما منع البذور من النمو مجدداً. عندما يسير المرء عبر آيسلندة اليوم، يلاحظ مباشرة كيف أن الأشجار التي ما تزال واقفة محاطة بسياج لحمايتها من الأغنام.

كانت هضاب آيسلندة فوق نطاق الأشجار، التي تتكون من مراعٍ عشبية طبيعية في تربة ضحلة خصبة، جذّابة بشكل خاص للمستوطنين، الذين لم يكن عليهم حتى قطع الأشجار للحصول على مراعٍ. لكن الهضاب كانت أكثر هشاشة من السهول، لأنها كانت أبرد وأكثر جفافاً، وكانت معدلات نمو النباتات عليها أقل، ولم تكن محمية بغطاء نباتي. حالما تمت إزالة الغطاء الطبيعي للمنطقة العشبية أو أجهزت عليه الحيوانات، أضحت التربة المكونة من الرماد أصلاً عرضة آنذاك للتعرية الناجمة عن الرياح. إضافة إلى ذلك، كان الماء الذي يجري إلى الأسفل، سواءً الأمطار أو نتيجة ذوبان الثلوج، قد بدأ ينحت أخاديد في التربة المكشوفة آنذاك. لكن عندما ازداد عمق الأخاديد وانخفض مستوى المياه من أعلى الأخدود إلى أسفله، جفت التربة وأضحت أكثر عرضة لتعرية الرياح. أثناء وقت قصير بعد الاستيطان، بدأت تربة آيسلندة تنجرف من الهضاب إلى السهول وصولاً إلى البحر،

فتعرّت الهضاب من التربة إضافة إلى الطبقة النباتية، وأصبح الغطاء العشبي للمنطقة الداخلية في آيسلندة صحراء من صنع الإنسان (أو صنع الأغنام) التي يراها المرء اليوم، ثم بدأت مساحات واسعة من الأرض تتعرض للتعرية في السهول أيضاً.

ينبغي أن نسأل أنفسنا اليوم: لماذا تعامل هؤلاء المستوطنون الحمقى مع أرضهم بتلك الطرق التي سببت مثل تلك الأضرار الواضحة؟ ألم يدركوا ما كان سيحدث؟ نعم، أدركوا أخيراً، لكنهم لم يستطيعوا ذلك في بادئ الأمر لأنهم واجهوا مشكلة إدارة أرض غير مألوفة وصعبة لهم. إذا استثنيا براكينها وينابيعها، تبدو آيسلندة مثل مناطق في النرويج وبريطانية من حيث جاء مستوطنوها. لم يكن لدى مستوطني الفايكنغ طريقة لمعرفة أن تربة آيسلندة وغطاءها النباتي كانا أكثر هشاشة مما كانوا معتادين عليه. بدا من الطبيعي للمستوطنين السكن في الهضاب وتربية الكثير من الأغنام هناك، تماماً كما كانوا قد فعلوا في هضاب اسكوتلندة: كيف كان لهم أن يعرفوا أن هضاب آيسلندة لا يمكنها تحمل الأغنام تحديداً، وأنه حتى السهول تتعرض لرعي جائر؟ بالمختصر، السبب الذي جعل آيسلندة البلد الأوروبي الذي يعاني من أكبر ضرر بيئي على الإطلاق ليس مرتبطاً بقيام المهاجرين النرويجيين والبريطانيين المتيقظين برمي حذرهم في مهب الريح عندما هبطوا على الجزيرة، وإنما لأنهم وجدوا أنفسهم في بيئة خصبة ظاهرياً لكنها هشّة في ولم تنفع تجاربهم النرويجية والبريطانية في جعلهم مستعدين لها.

عندما أدرك المستوطنون أخيراً ما كان يجري، اتخذوا إجراءات إصلاحية. وتوقفوا عن هدر قطع كبيرة من الخشب، وتوقفوا عن تربية الخنازير والماعز المدمرة للبيئة، وهجروا الكثير من الهضاب. وتعاونت مجموعات من المزارع المتجاورة في اتخاذ قرارات مشتركة حاسمة لمنع التعرية، مثل القرار المتعلق بنقل الأغنام في آخر الربيع إلى مناطق مشاع من المراعي الطبيعية على ارتفاعات عالية لقضاء الصيف، وإعادة الأغنام في الخريف إلى السهول مجدداً. توصل المزارعون إلى اتفاقية بشأن الحد الأقصى من عدد الأغنام التي يمكن لكل مرعى مشترك أن يستضيفها، وكيفية تقسيم ذلك العدد إلى حصص بين المزارعين أنفسهم.

عملية اتخاذ القرار مرنة وحسّاسة، لكنها تقليدية أيضاً. وصف لي أصدقائي من آيسلندة مجتمعهم بأنه محافظ وقاسٍ. أصيبت الحكومة الدانمركية التي أصبحت آيسلندة تتبع لها بعد سنة 1397م بالإحباط بشكل متكرر نتيجة ذلك الموقف كما بذلت جهوداً كبيرة لتحسين وضع أهل الجزيرة. وكان من ضمن قائمة التحسينات الطويلة التي حاول الدانمركيون إدخالها: زراعة الحبوب، وشبكات متطورة لصيد الأسماك، والصيد على متن قوارب، وتمليح السمك لتصديره بدلاً من مجرد تجفيفه، وصناعة الحبال، وصناعة الدباغة، والتنقيب عن الكبريت من أجل التصدير. فيما يخص كل هذه المقترحات وغيرها التي تتضمن تغييراً، وجد الدانمركيون (إضافة إلى بعض سكان الجزيرة المنفتحين أنفسهم) أن إجابة أهل آيسلندة كانت «لا»، بعض النظر عن الفوائد المحتملة التي كانوا سيحصلون عليها.

شرح لي أصدقائي من آيسلندة أن وجهة النظر المحافظة هذه تصبح مفهومة عندما يفكر المرء بهشاشة بيئة الجزيرة. أصبح أهل آيسلندة محكومين بتاريخ تجربتهم الطويلة عند التعامل مع هذا الأمر؛ ومهما يكن التغيير الذي يحاولون القيام به، كان على الأرجح يجعل الأمور أسوأ وليس أفضل. في السنوات الأولى من عمر التجربة أثناء تاريخ آيسلندة المبكر، استطاع مستوطنوها استنباط نظام اقتصادي واجتماعي يعمل جيداً، بشكل أو بآخر. كان مسلماً به أن ذلك النظام يجعل الجميع فقراء، وتضور بعض الأشخاص جوعاً حتى الموت من وقت إلى آخر، لكن المجتمع بقي قائماً على الأقل. وكانت تجارب أخرى مرّ بها أهل الجزيرة في تاريخهم تنحو لأن تنتهي بشكل كارثي. وتوجد أدلة على تلك الكوارث في كل مكان حولهم، في الهضاب التي لها تضاريس سطح القمر، والمزارع السابقة المهجورة، ومناطق المزارع التي تعرضت للتعرية. عبر كل تلك التجربة، توصل أهل آيسلندة إلى نتيجة: نعيش في أرض هشّة؛ نعرف أن طرقنا سوف تسمح لبعضنا على الأقل بالبقاء على قيد الحياة، لهذا لا تطلبوا منّا القيام بأي تغيير.

يمكن تلخيص تاريخ آيسلندة السياسي من سنة 870م فصاعداً بسرعة. كانت آيسلندة مستقلة عدة قرون، إلى أن نتج عن قتال بين زعماء ينتمون إلى العائلات الرئيسة

الخمس موت الكثير من السكان وحرق المزارع في النصف الأول من القرن الثالث عشر. دعا أهل آيسلندة سنة 1262م ملك النرويج لتولي الحكم فيها على افتراض أن ملكاً بعيداً سيكون أقل خطراً عليهم، وسيمنحهم بعض الحرية، ولن يجعل أراضيهم تغرق على الأرجح في فوضى كما فعل زعماؤهم المحليون. نتج عن الزواج بين العائلات الملكية الاسكندنافية اتحاد عروش الدانمرك، والسويد والنرويج سنة 1397م بقيادة ملك واحد كان أكثر اهتماماً بالدانمرك لأنها المقاطعة الأغنى، وأقل اهتماماً بالنرويج وآيسلندة اللتين كانتا فقيرتين. حظيت آيسلندة سنة 1874م ببعض السلطات، وبالحكم الذاتي سنة 1904م والاستقلال التام عن الدانمرك سنة 1944م.

كان اقتصاد آيسلندة مع نهاية العصور الوسطى قوياً بازدهار تجارة الأسماك المملحة (القد المجفف) التي يتم اصطيادها في مياهها وتصديرها إلى المدن الأوروبية التي كانت تتوسع آنذاك لسد احتياجات سكانها من الغذاء. نظراً لافتقار آيسلندة نفسها لأشجار كبيرة تصلح لبناء سفن كبيرة، كان اصطياد وتصدير تلك الأسماك يتم من قبل سفن تعود إلى مجموعة من الأجانب منهم بشكل خاص النرويجيون، والبريطانيون والألمان؛ وانضم إليهم الفرنسيون والدانمركيون. بدأت آيسلندة في أوائل القرن الثامن عشر بناء أسطولها الخاص ومرت البلاد بمدة نشاط محموم في صيد الأسماك على نطاق صناعي. كانت أكثر من 90% من صادرات آيسلندة الإجمالية سنة 1950م منتجات بحرية، فاقت في أهميتها القطاع الزراعي الذي كان مهيمناً سابقاً. تساوى عدد سكان آيسلندة في المدن مع عددهم في الأرياف سنة 1923م. يعيش سكان آيسلندة الآن في المدن أكثر من أي بلد اسكندنافي آخر، مع وجود أكثر من نصفهم في العاصمة ريكيافيك وحدها. وتستمر هجرة السكان من الريف إلى المدينة اليوم، ويهجر فلاحو آيسلندة مزارعهم أو يحولونها إلى منازل صيفية وينتقلون إلى المدن بحثاً عن وظائف، وكوكا-كولا، وثقافة عالمية.

بفضل وفرة الأسماك، وطاقة حرارة الأرض والكهرباء التي يتم توليدها من كل أنهارها، وتخلصها من ضرورة قطع الأشجار لبناء السفن (يتم تصنيعها الآن من المعدن)، أصبحت الدولة الأكثر فقراً سابقاً في أوروبة واحدة من أغنى البلدان وفقاً لدخل الفرد فيها، وهي قصة نجاح مذهلة تمنح توازناً لقصص الانهيار المجتمعي في الفصول

2 - 5. وضع الروائي الآيسلندي هالدور لاكسنيس حامل جائزة نوبل على لسان بطلة روايته سالكا فولكا جملة خالدة لا يمكن سوى لأهل آيسلندة قولها: «عندما يقال ويتم فعل كل شيء، تصبح الحياة أولاً وأخيراً سمكاً مملحاً». لكن تخزين السمك يتضمن مشكلة إدارة صعبة، مثلما تفعل الغابات والتربة. يعمل أهل آيسلندة بجد الآن لترميم الضرر الذي أصاب غاباتهم وتربتهم في الماضي، ومنع وقوع أضرار مشابهة في مسامكهم.

مع إبقاء هذه الجولة من تاريخ آيسلندة في الأذهان، لنرى أين تقف الجزيرة بين المستعمرات الاسكندنافية الخمس الأخرى في شمال الأطلسي. كنت قد ذكرت أن المصائر المختلفة لتلك المستعمرات اعتمدت بشكل خاص على الاختلافات في أربعة عوامل: مسافة الإبحار عن أوروبة، والمقاومة التي أبداها سكان ما قبل الفايكنغ، وصلاحية التربة للزراعة، والهشاشة البيئية. كان هناك اثنان من تلك العوامل في حالة آيسلندة، وتسبب الآخران بالمتاعب. كانت الأنباء الجيدة لمستوطني آيسلندة أنه لم يكن على الجزيرة (نظرياً على الأقل) سكان قبلهم، وأن المسافة التي تفصلها عن أوروبة (أقل كثيراً من غرينلاند أو فنلاند، وأكبر من أوركني وشتلاند وفيرو) كانت قريبة بما يكفي للسماح بتبادل تجاري كبير حتى باستعمال سفن العصور الوسطى. بخلاف أهل غرينلاند، بقي سكان آيسلندة على تواصل عبر سفنهم مع النرويج وبريطانية كل سنة، واستطاعوا الحصول على مستوردات كثيرة لاحتياجاتهم (ولا سيما أخشاب البناء، والحديد والفخار أخيراً)، وتصدير منتجات كثيرة. أثبتت صادرات السمك المجفف، بشكل خاص، أنها حاسمة في إنقاذ الجزيرة اقتصادياً بعد سنة 1300م لكنها أضحت غير عملية لمستعمرة غرينلاند الأكثر بعداً، التي غالباً ما كان جليد البحر يسد مسارات شحنها إلى أوروبة.

من الناحية السلبية، موقع آيسلندة في أقصى الشمال جعلها ثاني أسوأ مكان لزراعة المحاصيل الغذائية، بعد غرينلاند. لم تعد زراعة الشعير، التي كانت ضعيفة حتى في سنوات الاستيطان الأولى معتدلة المناخ، قائمةً عندما أصبح الطقس أكثر برودة في أواخر العصور الوسطى. ولم تكن تربية الأغنام والأبقار ذات شأن كبير في مزارع فقيرة أثناء سنوات الجفاف. على الرغم من ذلك، عاشت الأغنام جيداً في معظم السنين في آيسلندة

لدرجة أن تصدير الصوف هيمن على الاقتصاد طوال قرون بعد الاستيطان. وكانت أكبر مشكلات آيسلندة هشاشة البيئة: التربة الأكثر هشاشة بين المستعمرات الاسكندنافية، والطبقة النباتية الأكثر هشاشة بعد غرينلاند.

ماذا عن التاريخ الآيسلندي من وجهة نظر العوامل الخمسة التي تشكل إطار عمل هذا الكتاب: الضرر البيئي الذاتي، وتغير المناخ، والعلاقات العدائية مع مجتمعات أخرى، علاقات تجارية مع مجتمعات صديقة، والمواقف الثقافية؟ أدت أربعة من تلك العوامل دوراً في التاريخ الآيسلندي، ووحده عامل الغرباء المعادين كان ثانوياً، عدا المدة التي شهدت غارات القراصنة. توضح آيسلندة بجلاء التفاعل بين العوامل الأربعة الأخرى. كان أهل آيسلندة سيئي الطالع لأنهم ورثوا مجموعة صعبة من المشكلات البيئية، التي تفاقمت نتيجة برودة المناخ في العصر الجليدي الوسيط. وكانت التجارة مع أوروبة مهمة لتمكين أهل الجزيرة من البقاء على قيد الحياة على الرغم من تلك المشكلات البيئية. تشكلت ردة فعل أهل الجزيرة على مشكلاتهم البيئية نتيجة مواقفهم الثقافية. وكانت بعض تلك المواقف قد جاءت معهم من النرويج: خاصة اقتصادهم الرعوي، وولعهم الشديد بادئ الأمر بالأبقار والخنازير، وممارساتهم البيئية الأولية التي كانت مناسبة لتربة النرويج وبريطانية لكنها غير ملائمة لآيسلندة. تتضمن المواقف التي اتخذوها لاحقاً أن على آيسلندة التخلص من الخنازير والماعز وخفض عدد الأبقار، والعناية ببيئة آيسلندة الهشّة، واعتماد وجهة نظر محافظة. أصابت وجهة النظر تلك حكّام الدانمرك بالإحباط وأضرت ببعض أهل آيسلندة أنفسهم، لكنها ساعدتهم أخيراً في الاستمرار بالعيش دون تعريض أنفسهم للخطر.

حكومة آيسلندة اليوم مدركة تماماً لمشكلات الجزيرة التاريخية التي أدت إلى تعرية التربة والرعي الجائر، التي أدت دوراً كبيراً في فقر البلد وقتاً طويلاً. تم إنشاء وزارة حكومية كاملة تتولى محاولة تجديد التربة، وجعل الغابات تنمو مجدداً، وإعادة الطبقة النباتية للمناطق الداخلية، وتنظيم عملية تربية الأغنام. رأيت على هضاب آيسلندة خطوطاً من الأعشاب التي زرعتها تلك الوزارة في بيئة كانت شبيهة لولا ذلك بسطح

القمر في محاولة لتشكيل غطاء نباتي واقٍ ووقف انتشار التعرية. غالباً ما تذهلني جهود إعادة زرع النباتات تلك ـ خطوط أعشاب رفيعة على مساحات شاسعة قاحلة ـ لأنها تكون محاولات مثيرة للعواطف للتأقلم مع مشكلة عويصة. لكن أهل آيسلندة يحققون بعض التقدم.

خاض أصدقائي علماء الآثار في كل مكان آخر من العالم تقريباً كفاحاً عسيراً لإقناع الحكومات بأن عملهم ينطوي على قيمة عملية معقولة. يحاولون إقناع وكالات التمويل بأن دراسات مصائر مجتمعات سابقة ربما يساعدنا في فهم ما قد يحدث للمجتمعات التي نعيش فيها في المنطقة نفسها اليوم. توصلوا بشكل خاص إلى قناعة بأن الضرر البيئي الذي حدث في الماضي قد يحدث مجدداً في الحاضر، وأن المرء يستطيع الاستفادة من معرفة الماضي لتفادي تكرار الأخطاء نفسها.

تتجاهل معظم الحكومات حجج علماء الآثار هذه. لا يحدث هذا في آيسلندة حيث تأثيرات التعرية التي بدأت قبل 1.130 سنة مضت واضحة للعيان، وقد تم تدمير معظم الطبقة النباتية ونصف التربة، وما حدث في الماضي واضح للغاية وحاضر بقوة في كل مكان. هناك العديد من الدراسات عن مستعمرات آيسلندة وأشكال التعرية في القرون الوسطى القائمة الآن. عندما اتصل أحد زملائي علماء الآثار بحكومة آيسلندة وبدأ يقدم المسوغات المطولة المطلوبة في دول أخرى، كانت إجابة الحكومة: «نعم، ندرك بالطبع أن فهم تعرية التربة في القرون الوسطى سوف يساعدنا في فهم مشكلاتنا الحالية. نعرف ذلك سلفاً، وليس عليك قضاء وقت في إقناعنا بذلك. إليك المال، وانطلق لإجراء دراستك».

الوجود القصير لمستعمرة الفايكنغ الأبعد في شمال الأطلسي، فنلاند، قصة مذهلة وحدها. نظراً لأنها المحاولة الأوروبية الأولى لاستيطان الأمريكيتين، قبل 500 سنة من كولومبس، كانت موضوعاً لتأملات رومانسية والعديد من الكتب. من أجل أهدافنا في هذا الكتاب، الدروس الأهم التي ينبغي أن نستقيها من تجربة فنلاند هي تلك المتعلقة بأسباب إخفاقها.

يقع الساحل الشمالي الشرقي لأمريكة الشمالية الذي وصل إليه الفايكنغ على بعد آلاف الأميال عن النرويج، عبر المحيط الأطلسي، بعيداً جداً عن قدرة سفن الفايكنغ على الوصول إليه. بدلاً من ذلك، أبحرت كل سفن الفايكنغ المتجهة إلى أمريكة الشمالية من المستعمرة الأقصى إلى الغرب ـ غرينلاند. حتى تلك الجزيرة كانت بعيدة عن أمريكة الشمالية بمعايير إبحار الفايكنغ. يقع معسكر الفايكنغ الرئيس في فنلاند على بعد نحو 1500 ميل عن مستوطنات غرينلاند برحلة مباشرة، لكنه يتطلب قطع مسافة 2000 ميل في رحلة تستغرق ستة أسابيع على المسار الساحلي المعتاد الذي كان الفايكنغ يسلكونه لتأمين سلامتهم، نظراً لإمكانياتهم البدائية في الملاحة. وكان الإبحار من غرينلاند إلى فنلاند والعودة أثناء موسم الإبحار الصيفي في طقس مناسب لا يترك إلا وقتاً قليلاً لاستكشاف فنلاند قبل العودة مجدداً. أقام الفايكنغ لهذا السبب معسكراً لهم على فنلاند حيث يمكنهم البقاء أثناء الشتاء كل الصيف القادم في الاستكشاف.

كان تنظيم رحلات فنلاند المعروفة في غرينلاند يتمّ من قبل ابني، وابنة وكنّة إيريك الأحمر الذي كان قد أسس مستعمرة غرينلاند سنة 984م. كان هدفهم استطلاع الأرض، من أجل اكتشاف ما يمكن أن تقدمه ودراسة إمكانية الاستيطان فيها. وفقاً للقصص البطولية، أخذ هؤلاء الرحالة الأوائل معهم ماشية في قواربهم، حتى يكون لديهم خيار إقامة مستعمرة دائمة إذا بدت الأرض مناسبة لهم. بعد أن تخلى الفايكنغ عن أمل الاستيطان ذاك لاحقاً، استمروا في زيارة أمريكة الشمالية أكثر من 300 سنة من أجل الحصول على أخشاب البناء (المفقودة دائماً في غرينلاند)، وربما من أجل استخراج الحديد في مواقع كانت الأخشاب متوافرة فيها بكثرة لتحضير الفحم (المفقود أيضاً في غرينلاند) اللازم لصناعة الأدوات المعدنية.

لدينا مصدران للمعلومات عن محاولة الفايكنغ الاستقرار في أمريكة الشمالية: سجلات مكتوبة وتنقيبات أثرية. تضم السجلات المكتوبة أساساً قصتين بطوليتين تصفان الرحلات الأولى لاستكشاف فنلاند، المنقولة شفاهاً عدة قرون التي تمت كتابتها أخيراً في آيسلندة أثناء القرن الحادي عشر. في غياب دليل مؤكد واضح، كان العلماء

يعدون القصص البطولية من نسج الخيال ويشككون بأن الفايكنغ قد وصلوا أصلاً إلى العالم الجديد، حتى هدأ الجدال أخيراً عندما عثر علماء الآثار على معسكر الفايكنغ في فنلاند سنة 1961م. تعد سجلات القصص البطولية عن فنلاند أقدم وصف مكتوب عن أمريكة الشمالية، على الرغم من أن العلماء ما زالوا يجادلون بدقة تفاصيلها. تضم تلك السجلات مخطوطتين منفصلتين تدعيان «قصة غرينلاند البطولية» و«قصة إيريك الأحمر البطولية» اللتين تتفقان بشكل عام لكن بينهما العديد من الاختلافات الصغيرة. تصفان الرحلات الخمس المنفصلة من غرينلاند إلى فنلاند، في أوقات قصيرة لا تتجاوز العقد من الزمن، وكانت كل رحلة تنطلق بسفينة واحدة فقط، عدا الأخيرة التي ضمت سفينتين أو ثلاثاً.

في قصتي فنلاند البطوليتين تلك، يتم وصف المواقع الرئيسة في أمريكة الشمالية التي زارها الفايكنغ بإيجاز ومنحها أسماء اسكندنافية مثل هليولاند، ومماركلاند، وفنلاند، ولايفسبودر، وسترامفورد وهوب. بذل العلماء جهوداً كبيرة في تحديد تلك الأسماء والأوصاف الموجزة (مثلاً: «كانت هذه الأرض [ماركلاند] شاسعة تغطيها الغابات، وتنحدر برفق نحو البحر، وقد مروا بالكثير من شواطئ الرمال البيضاء ... ستتم تسمية هذه الأرض لما تحتويه وتدعى ماركلاند [أرض الغابات]»). يبدو واضحاً أن هليولاند تعني الساحل الشرقي من جزيرة بافن في الدائرة القطبية الكندية، وماركلاند هي ساحل لابرادور جنوب جزيرة بافن، وتقع كل من جزيرتي بافن ولابرادور إلى الغرب من غرينلاند عبر مضيق ديفيز الضيق الذي يفصل غرينلاند عن أمريكة الشمالية. من أجل البقاء ضمن مسافة رؤية اليابسة قدر المستطاع، لم يكن فايكنغ غرينلاند يبحرون مباشرة عبر شمال الأطلسي المكشوف إلى فنلاند وإنما يعبرون بدلاً من ذلك مضيق ديفيز إلى جزيرة بافن ثم يتجهون جنوباً على طول الساحل. تشير أسماء الأماكن الباقية في القصتين البطوليتين بكل وضوح إلى المنطقة الساحلية من كندا جنوب لابرادور، بما في ذلك نيوفاوندلاند وربما خليج سان لورانس، وبرونسفيك الجديدة ونوفا سكوتيا (التي سميت مجتمعة فنلاند)، وربما جزء من ساحل نيوإنغلاند (إنكلترة الجديدة). قام

الفايكنغ في العالم الجديد بعمليات استكشاف واسعة في البداية من أجل العثور على المناطق المفيدة لهم، تماماً كما نعرف أنهم فعلوا في غرينلاند قبل اختيار أفضل منطقتين للرعي للاستقرار فيهما.

مصدرنا الآخر للمعلومات عن الفايكنغ في العالم الجديد هو علم الآثار. على الرغم من البحث المكثف الذي قام به علماء الآثار، لم يتم العثور سوى على معسكر فايكنغ واحد والتنقيب عن الآثار فيه ويقع في لانز أو ميدوز على الساحل الشمالي الغربي لنيوفاوندلاند. تشير تواريخ الكربون الإشعاعي إلى أن المعسكر كان مأهولاً نحو سنة 1000 ميلادية، ويتوافق ذلك مع سرد القصة البطولية التي تقول بأن أبناء إيريك الأحمر قادوا رحلات إلى فنلاند، ونظموا الاستيطان في غرينلاند نحو سنة 984م، وأنهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة في أوقات تلك الرحلات. يتألف موقع لانز أو ميدوز، الذي يتوافق مع وصف القصتين البطوليتين عن معسكر يدعى لايفسبودير، من بقايا ثمانية أبنية تضم ثلاث قاعات سكنية تكفي لاستيعاب 80 شخصاً، ومشغل حدادة لاستخراج الفلز وصنع مسامير الحديد للقوارب، وورشة نجارة ومكاناً لتصليح القوارب، لكن دون مبانٍ أو أدوات للزراعة.

وفقاً للقصتين البطوليتين، كانت لايفسبودير مجرد قاعدة في موقع مناسب لقضاء فصل الشتاء والخروج منه في رحلات استكشاف أثناء الصيف، وكانت الموارد محط اهتمام الفايكنغ موجودة فقط على فنلاند. تأكد ذلك بوساطة دليل صغير لكنه مهم أثناء التنقيبات الأثرية لمعسكر لانز أو ميدوز عُثِر على ثمرتي جوز بريتين من فصيلة الجوز الزيتي الذي لا ينمو في نيوفاوندلاند. حتى أثناء فصول المناخ الدافئ التي سادت في الألفية الأولى للميلاد، كانت أقرب أشجار الجوز من نيوفاوندلاند تقع جنوب وادي نهر سان لورانس. وكانت تلك أيضاً أقرب منطقة ينمو فيها العنب وفقاً لوصف القصتين البطوليتين. من المحتمل أن وجود تلك العنب هو ما دفع الفايكنغ لتسمية المنطقة فنلاند، التي تعني «أرض النبيذ».

تصف القصتان البطوليتان فنلاند بأنها غنية بالموارد المفقودة في غرينلاند. وكان على رأس قائمة ميزات فنلاند مناخها المعتدل نسبياً، وتضاريسها الأقل ارتفاعاً وتمتعها

بموسم نمو صيفي أطول من غرينلاند؛ وأعشاب طويلة، وفصول شتاء معتدلة مما سمح لماشية الاسكندنافيين بالرعي خارج الحظائر من تلقاء نفسها أثناء الشتاء، ومن ثم وفرت على الاسكندنافيين عناء جمع القش في الصيف لإطعام ماشيتهم في الحظائر. كانت غابات الأخشاب الجيدة في كل مكان. كان بين الموارد الطبيعية الأخرى سلمون بحيرات وأنهار أكبر من أي سلمون يمكن العثور عليه في غرينلاند، وتعد المنطقة البحرية المحيطة بنيوفاوندلاند من أغنى أماكن صيد الأسماك البحرية في العالم ويوجد على الجزيرة أيضاً حيوانات برية تضم الظباء، الأيائل، والطيور وبيوضها.

على الرغم من حمولات السفن الثمينة من أخشاب البناء، والعنب، وفراء الحيوانات التي جلبها رحّالة فنلاند إلى غرينلاند، لم تستمر الرحلات، وأصبح معسكر لانز أو ميدوز مهجوراً. على الرغم من أن التنقيبات الأثرية في المخيم كانت مثيرة لأنها أثبتت أخيراً أن الفايكنغ كانوا قد وصلوا فعلاً إلى العالم الجديد قبل كولومبس، إلا أنها كانت مخيبة للآمال أيضاً؛ لأن الاسكندنافيين لم يتركوا شيئاً ذا قيمة. وكانت الأشياء التي تم العثور عليها مواد صغيرة مهملة أو ضائعة، مثل 99 مسماراً حديدياً مكسوراً، ومسمار واحد صحيح، ودبوس برونزي، وحجر شحذ، ومغزل، وخرزة زجاجية، وإبرة صنارة. من الواضح أنه لم يتم إخلاء الموقع على عجل، وأن الأمر كان مخططاً جيداً لأنه تم إعادة كل الأدوات والممتلكات القيّمة إلى غرينلاند. نعرف اليوم أن أمريكة الشمالية كانت أكبر أرض اكتشفها الاسكندنافيون شمال الأطلسي وأكثرها قيمة، وقد أعجبتهم حتى أصغر قطعة قاموا باستكشافها فيها. لماذا، إذاً، تخلى الاسكندنافيون عن فنلاند، أرض الوفرة؟

تقدم القصتان البطوليتان إجابة بسيطة عن هذا السؤال: العدد الكبير من الهنود المعادين، الذين أخفق الفايكنغ في إقامة علاقات طيبة معهم. وفقاً للقصتين البطوليتين، كان أوائل الهنود الذين التقاهم الفايكنغ مجموعة من تسعة أفراد، قتلوا منهم ثمانية، فيما هرب التاسع. لم تكن تلك بداية مشجعة لإقامة صداقة. ولم يكن مفاجئاً أن الهنود عادوا في أسطول من القوارب الصغيرة، أطلقوا سهماً على الاسكندنافيين، وقتلوا قائدهم ثورفالد، ابن إيريك الأحمر. لدى سحب السهم من أمعائه، يقال إن ثورفالد المحتضر

انتحب قائلاً: «هذا بلد غني استطعنا العثور عليه، ويوجد الكثير من الدهن حول بطني. لقد وجدنا أرضاً ذات موارد رائعة، مع أننا لم نستمتع بالكثير منها».

استطاعت المجموعة الآتية من الرحّالة الاسكندنافيين إقامة علاقات تجارية مع الهنود المحليين (ملابس وحليب أبقار الاسكندنافيين مقابل فراء الحيوانات الذي يجلبه الهنود)، حتى قتل أحد الفايكنغ هندياً كان يحاول سرقة أسلحة. في المعركة اللاحقة، لقي الكثير من الهنود حتفهم قبل أن يتمكنوا من الفرار، لكن ذلك كان كافياً لإقناع الاسكندنافيين بالمشكلات العضال التي كانوا سيواجهونها. قال مؤلف قصة إيريك الأحمر البطولية المجهول: «أدركت المجموعة [الفايكنغ] عندها أنه على الرغم من كل ما يمكن للأرض تقديمه هناك، إلا أنهم سيكونون معرضين لخطر دائم يتمثّل في هجمات سكانها السابقين. استعدوا للمغادرة إلى بلدهم الأصلي [أي غرينلاند]».

بعد التخلي عن فنلاند للهنود، استمر اسكندنافيو غرينلاند بالقيام بزيارات شمالاً على طول ساحل لابرادور، حيث لا يوجد الكثير من الهنود، من أجل البحث عن أخشاب البناء والحديد. يتمثّل الدليل الملموس على مثل تلك الزيارات بوجود حفنة من مواد كان يستعملها الاسكندنافيون (قطع من النحاس المذاب، والحديد المذاب، وصوف الماعز المغزول) في مواقع الأمريكيين الأصليين الأثرية المبعثرة في الدائرة القطبية الكندية. أكثر تلك المواد لفتاً للأنظار قرش فضي تم سكه في النرويج بين سنتي 1065 و1080م في عهد الملك أولاف المسالم، وقد تم العثور عليه في موقع هندي على ساحل مين على بعد مئات الأميال من لابرادور، وهو مثقوب ليتم استعماله قلادة. كان موقع مين قرية تجارية كبيرة أخرج منها علماء الآثار حجارة وأدوات يعود أصلها إلى لابرادور إضافة إلى الكثير من نوفا سكتيا، ونيوإنغلاند، ونيويورك، وبنسلفانيا. ربما يكون القرش قد وقع سهواً أو قايض به زائر اسكندنافي إلى لابرادور بشيء ما، ثم وصل إلى مين عبر شبكة تجارية هندية.

دليل آخر على استمرار رحلات الاسكندنافيين إلى لابرادور ذكر سفينة غرينلاند، في سجل تاريخ آيسلندة لسنة 1347م، المكون طاقمها من 18 شخصاً وكانت قد وصلت

إلى آيسلندة بعد أن فقدت مرساتها ودفعتها الرياح عن مسارها في طريق عودتها من «ماركلاند». ما هو مذكور في السجل التاريخي موجز وواقعي، كما لو أن ذلك كان شيئاً اعتيادياً لا يستحق التعليق عليه -كان الكاتب يسجل بخلاف ذلك أشياء واقعية أخرى- «إذاً، الأنباء هذه السنة هي أن واحدة من تلك السفن التي تزور ماركلاند كل صيف فقدت مرساتها، وكذلك أراقت ثورون كيتلسدوتر إبريقاً كبيراً من الحليب في مزرعتها، وماتت إحدى أغنام بجارني بولاسون، وتلك هي كل الأنباء هذه السنة، الأشياء المعتادة فحسب».

بالمختصر، أخفقت مستعمرة فنلاند لأن مستعمرة غرينلاند نفسها كانت صغيرة جداً وفقيرة بأخشاب البناء والحديد لدعمها، وبعيدة جداً عن كل من أوروبة وغرينلاند، ولا تمتلك سوى بعض السفن التي يمكنها الإبحار في المحيطات، ولم تستطع تمويل بناء أساطيل كبيرة للاستكشاف، ولم تكن حمولة سفينة أو اثنتين من أهل غرينلاند تستطيع الوقوف أمام حشود الهنود من نوفا سكوتيا وخليج سان لورانس عندما تم استفزازهم. ولم يكن عدد أفراد مستعمرة غرينلاند سنة 1000 ميلادية يتجاوز 500 شخص، لهذا كان 80 راشداً في معسكر لانز يمثل استنزافاً كبيراً لقوة غرينلاند البشرية القيّمة. عندما عاد المستوطنون الأوروبيون أخيراً إلى أمريكة الشمالية بعد سنة 1500م، يدل تاريخ محاولات الأوروبيين للاستقرار حينها على الصعوبات التي واجهوها، حتى فيما يتعلق بالمستعمرات التي كانت تدعمها أغنى وأكثر الدول سكاناً، التي كانت ترسل سنوياً أساطيل سفن إمداد أكبر بكثير من قوارب الفايكنغ في القرون الوسطى، ومزوّدة بأسلحة وأدوات معدنية كثيرة. لقي نحو نصف أوائل المستوطنين في المستعمرات الإنكليزية والفرنسية في ماساشوستس، وفيرجينيا وكندا حتفهم نتيجة الجوع والأمراض أثناء السنة الأولى. لم يكن مفاجئاً، حينها، أن سكان غرينلاند البالغ عددهم 500 شخص، في أبعد نقطة استيطانية عن النرويج -واحدة من أفقر الدول الأوروبية- لم يحالفهم الحظ في فتح واستيطان أمريكة الشمالية.

من أجل أهدافنا في هذا الكتاب، الشيء الأكثر أهمية بشأن إخفاق مستعمرة فنلاند أثناء 10 سنوات أنها كانت نسخة سريعة من الإخفاق الذي أصاب مستعمرة غرينلاند بعد

450 سنة. استمرت غرينلاند الاسكندنافية لوقت أطول من فنلاند الاسكندنافية لأنها كانت أقرب إلى النرويج ولأنه لم يظهر أعداء لها في العقود القليلة الأولى من وجودها. لكن غرينلاند تشترك مع فنلاند، وإن كان بشكل أقل حدّة، في مشكلتيها المتمثلتين في العزلة وعدم قدرة الاسكندنافيين على إقامة علاقات طيبة مع الأمريكيين الأصليين. لو لم يكن الأمر متعلقاً بالأمريكيين الأصليين، ربما استطاع أهل غرينلاند تجاوز مشكلاتهم البيئية، وربما تواصل استيطان فنلاند. في تلك الحالة، ربما كانت فنلاند تعرضت لانفجار سكاني، وانتشر الاسكندنافيون في كل أنحاء أمريكة الشمالية بعد سنة 1000 ميلادية، وكنت أنا بصفتي أمريكياً أعيش في القرن العشرين أخطّ هذا الكتاب بلغة اسكندنافية قديمة مثل لغة آيسلندة أو فيرو المعاصرة، وليس بالإنكليزية.

obeikandl.com